الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف -المسيلة

كلية : كلية الآداب واللغات
قسم: الأدب العربي
رقم: .....

ميدان: كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
فرع: أدب عربي
تخصص: أدب جزائري

مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر الأكاديمـــي

تحت عنوان:

المكان ودلالته في رواية رحلاتي ببلاد السافانا للصديق حاج أحمد

اعداد:
طهراوي نصيرة
سمية بن كيحول

اشراف :
د. عباس بن يحي

لجنة المناقشة

أ.د– مبرك حسين	رئيسا
أ.د– عباس بن يحي	مشرفا و مقررا
أ.د– سعاد عروة	ممتحنا

السنة الجامعية : 2023/2022

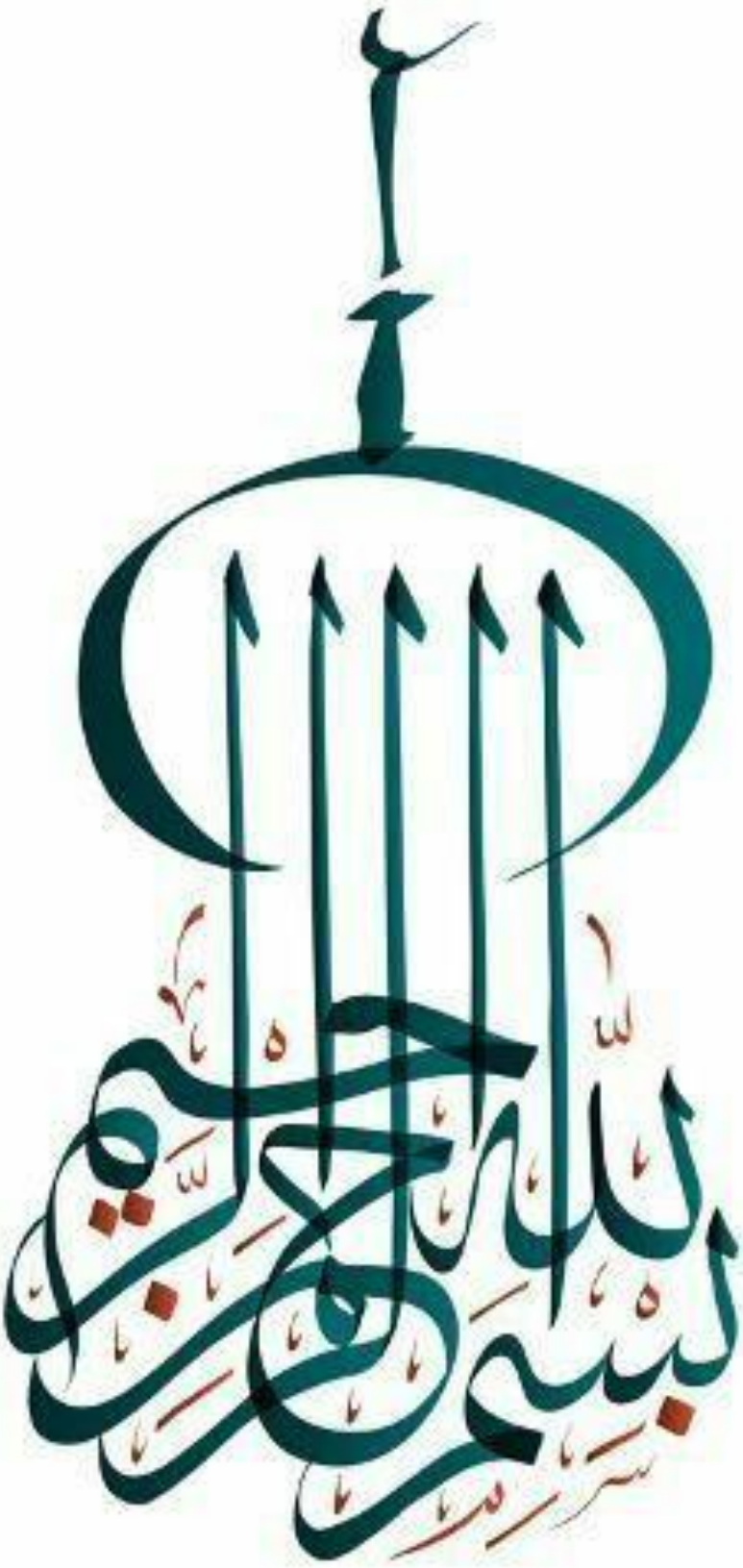
بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	أ- ت
مدخل: النص الرحلي الحديث في الجزائر	
تمهيد	05
1. ماهية أدب الرحلة	06
1.1. مفهوم أدب الرحلة	07
2.1. نشأة أدب الرحلة	08
2. أدب الرحلة في الجزائر	09
1.2. نشأة أدب الرحلة في الجزائر	09
3.2. أدب الرحلة في الجزائر قبل الاستقلال وبعده	10
1.3.2. قبل الاستقلال	10
2.3.2. بعد الاستقلال	11
4.2. أنواع أدب الرحلة في الجزائر	13
1.4.2. الرحلات الحجازية	13
2.4.2. الرحلات العلمية	14
3.4.2. دوافع أدب الرحلة	14
1.الدافع الديني	14
2. الدافع العلمي	15
3. الدافع الاداري	15
4. الدافع الاقتصادي	15
الفصل الأول: أنواع المكان في الرواية	
تمهيد	18
1- مفهوم المكان عند الفلاسفة والنقاد	19
1-1- مفهوم المكان	19

2-1-عند الفلاسفة	20
3-1-عند النقاد	21
2-أنواع المكان في رواية "رحلتي إلى بلاد السافانا	22
1-2-الأماكن المفتوحة	22
1-1-2- البلدان	**22**
أولا/ النيجر	22
ثانيا/مالي	23
ثالثا/ السودان	24
2-1-2- المدن	25
أولا: نيامي	26
ثانيا: الجزائر العاصمة	26
ثالثا: رقان	27
رابعا: الخرطوم	27
3-1-2- الشارع	28
2-2-الأماكن المغلقة	28
أولا: المنازل	28
ثانيا: المكتبات	29
ثالثا: المطار	29
رابعا: الجامعة	30
خامسا: الفندق	30
سادسا: الخيمة	31
مركزية الصحراء	32
الفصل الثاني: دلالة الأمكنة في الرواية	

1-البعد الاجتماعي	37
2- البعد النفسي	**41**
3- البعد السياسي	43
4- دلالات الانتماء في الرواية	**46**
الخاتمة	51
المصادر والمراجع	
الملاحق	

مقدمة

اهتمت الدراسات النقدية العربية منذ القدم بدراسة فنون الأدب المتعددة، من قصّة أو شعر أو مقالة وغيرها، لكن هناك لون أدبي لم يحظ بذات الاهتمام، على الرغم من حيازته على عدد كبير من المؤلفات ألا وهو" أدب الرحلة" وهو ذلك النثر الأدبي الذي يتخذ من الرحلة مادة له، أو بمعنى آخر عندما تكتب في شكل أدبي نثري متميز، في لغة خاصة، ومن خلال بناء فنّي له ملامحه وسماته المتنقلة، إذ أن الرحلات كانت ولازالت من دعائم الفكر العربي.

ويعد أدب الرحلة سواء لدى العرب أو غيرهم بمثابة الخزان التاريخي، الذي حمل في ثناياه الكثير من الصّور الجميلة والمشاهد المميزة لكثير من البلدان وطبيعتها الجغرافية وظروفها المعيشية، من خلال تسليط الضوء على تاريخ هذه البلدان وأفكار سكانها وعاداتهم وتقاليدهم ليساهموا بذلك في نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى وإثارة الاهتمام بها.

واحتوت كتب الرّحلات في تراثنا العربي الكثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، عكست المشاهد واتصال صاحب التدوين المباشر بالطبيعة وبالنفس وبالناس وبالحياة، بمعنى أنه ينقل ما يراه ليضعه بين أيدي كل من الجغرافيين والمؤرخين، وكذا علماء الاجتماع والاقتصاديين ودارسي الأدب.

ويعتبر الوصف أهم عنصر في محتوى أدب الرحلة، فهو ذلك التصوير للعالم الخارجي أو الداخلي من خلال الألفاظ والعبارات، ووظيفته تكمن في خلق البيئة التي تجري فيها أحداث القصة وتكوين نسيجها، ولا يجوز للقاص أو الرحالة أن يتخذ من الوصف مادة للزينة، وإنما لتأدية دوره في بناء الحدث، متبعين في ذلك المنهج السيميائي مع اللجوء إلى المنهج التاريخي، في بعض مراحل البحث.

ولعل الحافز القوي الذي جعلنا ننتقي موضوع أدب الرحلة من بين الفنون الأدبية، هو الشغف لمعرفة خبايا الرحلات وما تحويه من مغامرات وعادات بالإضافة إلى تقاليد الشعوب. خاصة فيما يتعلق برواد أدب الرحلة في جنوب جزائر، وبالأخص رواية "رحلاتي إلى بلاد السافانا" للصديق حاج أحمد، ولعل دافع التشويق في هذا الطرح هو ما جذبنا إليه

ليكون موضوع مذكرة تخرجنا، حيث قمنا باستقصاء بعض المعلومات وإن لم تكن بالكم الكبير، إلا أننا نأمل أن تفي بالغرض.

ولمعالجة هذا الموضوع طرحنا الإشكالية التالية: ما هي أنماط حضور المكان في الرواية ؟ وما هي دلالاته؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية اعتمدنا خطة انقسمت إلى مدخل وفصلين فأما المدخل فتناولنا فيه مفهوم أدب الرحلة ونشأته، كما تطرقنا إلى أدب الرحلة في الجزائر سواء قبل الاستقلال أو بعده، كما أبرزنا أنواع أدب الرحلة في الجزائر إضافة إلى دوافعه.

وتطرقنا في الفصل الأول إلى مفهوم المكان عند الفلاسفة والنقاد، كما أبرزنا أنواع المكان في رواية "رحلاتي إلى بلاد السافانا"، بداية بالأماكن المفتوحة كالبلدان والمدن والشوارع أما فيما يخص الأماكن المغلقة فتناولنا فيها المنازل والمكتبات والمطار والجامعة والفندق والخيمة، كما عالجنا مركزية الصحراء.

أما الفصل الثاني فتناولنا فيه مختلف الأبعاد في الرواية منها البعد الاجتماعي وتطرقنا فيه إلى الرسائل الاجتماعية من خلال الرواية، إضافة الى البعد النفسي والسياسي، كما عرجنا على دلالات الانتماء في الرواية.

وفيما يخص المصادر والمراجع، فقد اعتمدنا رواية رحلاتي لبلاد السافانا للصديق حاج أحمد، إضافة إلى مجموعة مراجع منها: من آداب الرحلات لعماد الدين خليل، والرحلة في الأدب العربي لناصر عبد الرزاق الموافي، وأدب الرحلة عند العرب لحسني محمود حسين، إضافة إلى تطور النثر الجزائري الحديث لعبد الله الركيبي.

أما الدراسات السابقة فلم تكن متاحة بكثرة نظرا لحداثة الموضوع وقد استندنا إلى دراسة بورقبة مريم، أدب الرحلة عند محمد الخضر حسين (الرحلة الجزائرية أنموذجا).

وقد واجهتنا صعوبات عدة منها قلة المصادر والمراجع، التي تناولت الرواية والكاتب وقلة الوقت وضيقه.

مدخل:

النثر الرحلي الحديث في الجزائر

1. أدب الرحلة في الجزائر
2. ماهية أدب الرحلة

تمهيد:

إن المتأمل في سيرة الانسان على مر العصور، سيرى تطوره المستمر، ويلتمس من خلال الحضارات المتعاقبة مدى إبداعه وحبه للاستكشاف، وهذا لتميزه عن باقي الخلق بالتعلم والتطور، وهذا شرط أساسي لإعمار الأرض، ولأن الحضارات كانت متباعدة في الزمان والمكان، كان لزاما على الانسان ابتكار ما يوثقها به، ليبرز التأريخ ولكنه كان عبارة عن معلومات جافة يغيب عنها التشويق ويتقيد بأخبار وأحداث لا يحيد عنها.

لهذا يعد أدب الرحلة بمثابة الموثق المشوق الجميل، الذي يسرد الأحداث الغابرة والآنية للأمم بشكل حكائي بسيط يجعل القارئ يعيش المسرود كأنه بين ثناياه، من بحث ووعي وتحليل.

وهذا ما سنناقشه في هذا المدخل، مراعين في سبيل ذلك ما يتعلق بأدب الرحلة من مفهوم ونشأة ورواد، معرجين في الوقت نفسه عن أدب الرحلة في الجزائر بين الظهور والتطور، سواء قبل الاستقلال أو بعده.

لا يعد أدب الرحلة حكرا على أمة دون أخرى فلكل نصيب منه، إلا أن العرب كان لهم الباع الأكبر، نظرا لكثرة رحلاتهم وترحالتهم، فأبدعوا وطوروا فيه، كابن بطوطة الرحالة الشهير وغيره الكثير.

وأدب الرحلة هو محاولة لاكتشاف سر الأشياء والتعرف علي تكوينها الذي يبدو أحيانا ككتل الجليد العائمة في المحيطات والبحار ليظهر منها سوي العشر، وتبقي الأعشار الأخرى مغيبة تحت الماء[1].

ولضبط المصطلح فلا شك أن التعريف متعذر الضبط، نظرا لاعتبارات عدة أبرزها تعدد مضامينها وأساليبها وتداخلها مع خطابات أخرى، فهي إلى حد كبير تعد من المصطلحات الفضفاضة والهجينة في الوقت نفسه، فهي موضوعان كبيران هما الأدب من جهة والرحلة من جهة أخرى، وإذا كان الأدب عموما فهي تحمل في طياتها مصدرا تغذي به مجموعة من العلوم كالجغرافيا والتاريخ والاجتماع والاقتصاد والاثنوغرافية، لأن الكاتب يسقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية والتصوير المباشر[2].

1-ماهية أدب الرحلة:

والمقصود بأدب الرحلة عموما السفر الذي يتوخى من ورائه الاطلاع على آفاق جديدة من المناطق المجهولة و قد يصل الأمر بصاحبها إلي تسجيل أهم ما يتعلق بها في تقرير يصبح وثيقة تاريخية وجغرافية لها بعد ذلك.

[1] من آداب الرحلات، عماد الدين خليل، دار ابن كثير، 1426 هـ، 2005 م، ص06.

[2] حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991، ص15.

وهكذا فالرحلة عامة هي عملية لكشف النقاب عن المجهول من الأرض والناس، والرحالة في الأساس يمكن أن تكون مكتشفا أو مغامرا أو عالما أو رجل دين أو تاجرا وتبعا، وتحركه دوافع سياسية أو اقتصادية او علمية أو دينية[1].

1.1. مفهوم أدب الرحلة:

ومن هنا فإن "أدب الرحلة هو: مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"[2]، "وعادة ما يكون أدب الرحلة ذا علاقة بعلوم أخرى وهذا الذي يمنح للرحلات قيمتان عظيمتان: قيمة علمية، وأخرى أدبية"[3].

فهي فن من الفنون النثرية تتعلق بحياة الأفراد والأمم التي زارها الرّحالة، حيث تتناول بشيء من التفصيل مختلف نواحي حياتهم ومعيشتهم بأسلوب أدبي شائق تغرى القارئ بمواصلة القراءة من أول سطر إلى آخره من دون ملل أو كلل.

احتوى أدب الرّحلات على مادة وفيرة وغزيرة؛ تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وأدبية ودينية، كما تضمن الحكايات والأساطير التي: "قد لا ترتقي إلى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة، أو الشعر، أو المسرحية، أو المقالة الأدبية مثلا، ففيه تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها من غير أن تضبطه معاييرها أو أن تخضع لمقاييسها[4].

---

[1] – مجموعة مؤلفين، الرحالة والتواصل الحضاري، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ط 1993 م، ص 13

[2] ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي، دار النشر للجامعة المصرية مكتبة الوفاء، ط 1، مصر،1995، ص 38.

[3] حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، ط 2، بيروت لبنان، 1983 ، ص 6.

[4] حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب مرجع سابق، ص09.

فالنص الرحلي ليس عملا فنيا بالضرورة، لارتباطه بأهداف أخرى خارجة عن الاهتمامات الأدبية، لكنه أخذ صبغته الأدبية من بنيته القصصية ومن مضمونه وشكله الأدبي.

1.2. نشأة أدب الرحلة:

يعد أدب الرحلة من الفنون الأدبية التي ظهرت عند العرب منذ القدم. والأصح أنه موغل في القدم، عرفته أمم أخرى قبل العرب كالفراعنة والفينيقيين والرومان والإغريق. ليأتي بعدهم الرحالة العرب الذين جابوا الآفاق، واشتهر كثيرون منهم مشرقاً ومغرباً أمثال: ابن جبير وابن بطوطة والإدريسي وغيرهم، إذ نقلوا ما كان يضطرب في العصور السابقة، وشاهدنا من خلال رحلاتهم مستوى الحضارة وقتها.

وبرزت الرحلة كفنّ أدبي مدون ابتداء من القرن الثالث الهجري، من بين هؤلاء الرحالة المدونين، " اليعقوبي" (ت284ه) صاحب كتاب " البلدان "، ومن بعده " المسعودي " صاحب كتاب "مروج الذهب "، جامعين بين المادة التاريخية والجغرافية والإطار الأدبي الفني. إضافة إلى "أبي حامد الأندلسي (ت564) بكتابه "تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب " و البيروني "بكتابه " الآثار الباقية "، وقد مثل الرحالة الأندلسي "محمد ابن جبير (ت614ه) أحسن تمثيل الاتجاه الأدبي برحلته "تذكار الأخبار عن اتفاقات الأسفار" حيث اهتم بالصياغة الأدبية إلى جانب المعلومات التاريخية والجغرافية. وقد جاء بعده رحالة كثر لعل أشهرهم "محمد بن إبراهيم "المعروف بابن بطوطة(ت776) الذي يعدّ من أشهر الرحالين شرقا وغربا بكتابه "تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

وبهذا التطور صارت الرحلة فنا عربيا أصيلا في النثر العربي بسماته التاريخية والجغرافية واهتمامه بحياة الناس وتقاليدهم، وأنماط عيشهم، وبمضمونه الفكري والاجتماعي،

وأسلوبه الأدبي المتميز[1]، الذي يمتزج فيه الواقع بالخيال، دون أن ننسى الجانب الإثنوغرافي ليكون بذلك أدب الرحلة مصدرا لوصف الثقافات الإنسانية، ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة[2].

2. أدب الرحلة في الجزائر:

1.2. نشأة أدب الرحلة في الجزائر:

عرف الجزائريون عبر تاريخهم الطويل- كغيرهم من أبناء يعرب-بكثرة تِرحالهم، وسفرهم في شتى أنحاء العالم، ولاسيما خلال القرن الثاني عشر الهجري(12 هـ)/القرن الثامن عشر الميلادي(18 م)، الذي يعدّ العصر الذّهبي لتطوّر فن الرّحلة على الصعيد العربي، نظرا لكثرة التآليف فيه ،غير أنّ ما يمكن أن يقال عن رحلات الجزائريين أنهم كانوا قليلي الإنتاج بالمقارنة مع إخوانهم المغاربة الذين دونوا رحلاتهم فكانت معروفة ومتداولة منذ قرون طويلة، بينما بقيت رحلات الجزائريين مسموعة، أو شفهية فقط، فلم يقوموا بتسجيلها لسبب أو لآخر[3].

وتجلت مساهمة الرحالة الجزائريين بمجهودات في هذا المجال، ومارس كتاب كثيرون هذا الفن، ولاسيما الرحلات التي كان يقصد منها لقاء شيوخ الطرق الصوفية والاجتماع بهم، أو السفر لأداء فريضة الحج. ومن بين أشهر الرحالة الجزائريين قديما،" أحمد بن عمار "، و" محمد بوراس المعسكري "، و" الورتلاني "، و" وابن حمادوش الجزائري "، وغيرهم.

---

[1] عمر بن قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر بن عكنون، 1995 ، ص11.

[2] حسين فهيم، أدب الرحلات: دراسة تحليلية من منظور أثنوجرافي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص15.

[3] بورقبة مريم، أدب الرحلة عند محمد الخضر حسين (الرحلة الجزائرية أنموذجا)، بحث مقدم لنيل شهادة الماستر، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة أدرار، 2013/2012، ص27.

وتعد رحلة " ابن حمادوش " المسماة " لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال "، من أقدم هذه الرحلات، وهذه الرحلة هي إحدى الوثائق الهامة في الحيوية الثقافية إلى جانب أسماء لامعة في الفقه والتاريخ والأدب، وإن اقتصرت أخبارها على المغرب والجزائر، انتقل فيها من مدينة الجزائر إلى تطوان ومكناس وفاس" وقد وصف ابن حمادوش الحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب الذي زاره مرتين على الأقل، وسجل ملاحظاته وأحكامه في مذكراته التي تعرف أيضا برحلة لسان المقال"[1]، ويمكن أن نقف عند مرحلتين من مراحلها:

2.2. أدب الرحلة في الجزائر قبل الاستقلال وبعده

1.2.2. قبل الاستقلال: أسهم الرحالة الجزائريون بمجهودات كبيرة في هذا المجال، ولاسيما تلك الرحلات التي كان يقصد منها لقاء شيوخ الزوايا والاجتماع بهم، أو السفر لأداء فريضة الحج. ولعل من بين أشهر الرحالة الجزائريين في تلك الفترة، نجد "أحمد بن عمار"، و" الورتلاني "، و" وابن حمادوش الجزائري "، و" محمد بوراس المعسكري "، وغيرهم.

ولعل أقدم هذه الرحلات هي رحلة " ابن حمادوش " المسماة " لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال "، والتي بدأ المؤلف كتابتها عام 1743 م.

وإن كان ما سبق قد برز قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، فقد ظهرت الحاجة لأغراض أخرى تتعايش مع ظروف الاحتلال، وخاصة تلك التي قام بها رجال الإصلاح لهدف الفكرة الإصلاحية ونشرها بين الجماهير، ودعوتها إلى اليقظة والنهوض. كما اتجه البعض الآخر إلى المشرق العربي، أو إلى أوربا والاتحاد السوفياتي والصين. وكان الهدف منها أيضاً خدمة الشعب الجزائري والتعريف بقضيته، كما اختلف المحتوى والأسلوب عن الأنواع السابقة إلى حد بعيد.

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي،ج2، بيروت، ط 1 ، 1998، ص335.

لقد كانت رحلات رجال الحركة الإصلاحية في الداخل تعمل على تصور مدى تعلق الشعب بالحركة وعلمائها، ويتجلى ذلك في رحلات " ابن باديس" التي سجلها، وأبرزها زياراته المختلفة للمدن والقرى في القطر الجزائري، وهو يطلق عليها لفظ " تنقلات". ويصرح بهدفه من وراء رحلاته إلى تذكير الناس بدينهم، وحثهم على الرجوع إليه، ثم يصف جولاته بذكر أسماء مدن قرى كثيرة، ويتحدث عن المساجد ويدعو إلى بناءها. كما يذكر أسماء شخصيات معروفة التقى بها ، إلى جانب رحلته إلى تونس المعنونة بـ "في تونس العزيزة".

هذا إلى جانب رحلات البشير الإبراهيمي الكثيرة داخل الوطن وخارجه. وتميز أسلوبه في هذه الرحلات بالعناية الشديدة والصياغة والبيان والجمال الأدبي. وفي رحلته إلى المشرق عام 1952 ضمن نشاطات ج ع م مبلغا لطلبات الجمعية لدى الحكومات عرف بالقضية الجزائرية وبنضال شعبه ضد الاحتلال.

ولعل أهم الرحلات التي تحمل طابعاً سياسياً قومياً، نجد رحلات " أحمد توفيق المدني" داخل الجزائر وخارجها، في أوربا والعالم الإسلامي والعربي، إضافة الى رحلات محمود بوزوزو بعنوان "من وحي البرلمان الفرنسي"[1].

2.3.2. بعد الاستقلال: تغير اهتمام الرحالة في هذه الفترة بتغير الظروف فبعد التعريف بقضية الجزائر إبان الاحتلال بدأ التعريف بإمكانيات الجزائر المختلفة، وحاول الكتّاب الجزائريون عموماً في هذه الفترة التوجه في كتابة مذكراتهم بوصف رحلاتهم الداخلية والخارجية، وتدوين مشاهداتهم ولقاءاتهم في قوالب أدبية. ولذلك نجد من يسمي هذا الأدب "بأدب المذكرات " بدل "أدب الرحلات"، مثل عبد المالك مرتاض. وهناك من يسميه "أدب السياحة"، على اعتبار السياحة رحلة حرة إلى مكان مرغوب فيه، بهدف التجوال والتمتع والاستطلاع والفضول والاكتشاف.

[1] محمود بوزوزو، من وحي البرلمان الفرنسي، مجلة البصائر، السلسلة 2 ، العدد 13 ، 10 نوفمبر 1974، ص 3.

والأدب السياحي هنا هو ثمرة كل ذلك في شكل جمالي يطبعه الإمتاع الوصفي والتنميق الكلامي، إضافة إلى التبليغ الانطباعي الذي يمتاز ببساطة الوظيفة الإخبارية. وساهم في ترسيخ هذا النوع من الأدب الدكتور "عبد الله الركيبي " بكتاب سمّاه " في مدينة الضباب ومدن أخرى"، ثم أردفه بعنوان فرعي "سياحة أدبية"، والذي نشره عام 2003، بعد ما كتب قبله "الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز" عام 1999.

كما برزت رحلات "أحمد منور" المتعددة ،ومنها ما كانت أوربية الوجهة مثل رحلته إلى فرنسا وانجلترا سنة1976، وكانت لغرض السياحة والتجوال ومنها ما كان مشرقي الوجهة كرحلاته إلى ليبيا ومصر والكويت، وكانت الأخيرتين لغرض ثقافي. وقد نشرت رحلاته إلى أوربا في جريدة السلام سنة1996. ونشرت باقي الرحلات في جرائد عربية كجريدة العرب الليبية (1991) والقبس الكويتية (1996).

ولا ننسى الصديق حاج أحمد الذي يعد من رواد أدباء الجنوب في أدب الرحلة، في الأدب الجزائري المعاصر، من خلال مجموعة من الروايات، لعل أبرزها ما هو بين أيدينا الآن، وهي رواية رحلاتي إلى بلاد السافانا، والتي كسر من خلالها النمط السائد في الأدب الرحلي في الجزائر، متوجها جنوبا نحو منطقة الساحل.

تجلى اهتمام أدب الرحلة في الجزائر من خلال المرحلتين السالفتي الذكر، بالجانب الجغرافي والتاريخي كما نقلت قضايا إيديولوجية وثقافية وحضارية من وجهات نظر الكتاب كما تعددت الأغراض أيضا من دينية إلى تعليمية مرورا بالتجوال والسياحة و قد استجدت دواعي أخرى لذلك كحضور الملتقيات والمهرجانات والتظاهرات الثقافية وأداء مهام سياسية أو دبلوماسية. واختلفت طرق تدوين هذه الرحلات فمنها ما استقل بكتب كاملة ومنها ما أخذ حيزا في كتب أخرى ككتب السير أو المذكرات ومنها ما ظل حبيس الجرائد و المجلات.

4.2. أنـواع أدب الرحلــة فــي الجزائــر: تعـددت نمـاذج أدب الـرحلات واختلفـت مساراتها، وتعددت مقاصدها، وتباينت مستويات التعبير فيها، واختلفت اهتمامات أصحابها الفكرية والسياسية والاجتماعية. لتظهر الرحلة الحجازية التي اتخذت وجهتها الحجاز لأداء فريضة الحج وهناك الرحلة السياسية التي اكتست طابعاً سياسياً في شكلها العام، كما برزت الرحلة الاستطلاعية التي اتخذت طابعاً جغرافياً تاريخياً استطلاعياً.

1.4.2. الرحلات الحجازية:

يعد أدب الرحلة عموماً في صميم " السيرة الذاتية "، لأن الكاتب يسرد في الأساس جزء من سيرته الذاتية، فتغطي معظم مادة الكتاب. بينما يتناول بشكل عام هناك صلته بالمحيط والأوضاع الاجتماعية والتاريخية وغيرها إضافة إلى ما يجذب اهتمامه ليكون محور تفكيره ومجال العلاقات العامة والخاصة في الرحلة، ولأن الحجاز بالنسبة للجزائريين ليست مجرد بقعة جغرافية تزار للسياحة والعلم، وإنما هي قطعة أرض ظاهرة تضم تاريخ الوعي والدعوة والأمة الإسلامية[1]، فانصب اهتمام الرّحالة الجزائريين على الرحلة الحجازية، فألفوا فيها رحلات سردية، وقصائد شعرية وصفوا فيها مشاق الطريق إلى الحجاز، منذ خروجهم من الديار إلى غاية وصولهم إلى البقاع المقدّسة؛ وفي هذه القصائد مدح للرسول صلى الله عليه وسلم، ووصف للمناسك والشعائر؛ ذلك أن الحجّ إلى الديار المقدسة بالنسبة إليهم كان من أعظم دوافع الرّحلة، فاتجهوا إلى الأراضي الطاهرة للقيام بالفريضة، وزيارة قبر الرّسول الكريم. كان الحج، ولا يزال، رحلة يتشوق لأدائها كل مسلم، ورغبة ملحة تساورهم في الخروج من أوطانهم، وأشواقهم من هذا المقصد الشريف.

لهذا أخذت الرحلات الحجازية حصة الأسد كرحلة "الشيخ "سيدي عبد الرحمان بن باعومر التّلاني(ت 1189 هـ)، الذي اشتهر بكثرة رحلاته طلبا للعلم أولا، وزيارة الروضة

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 385.

الشريفة ثانيا، ويذكر الشيخ "باي بالعالم" أن الشيخ سيدي "عبد الرحمن بن باعومر" قام في حياته بأربع رحلات دونها هو بنفسه، بالإضافة إلى العديد من الرحلات التي لا يسع المقام إلى ذكرها كرحلة" أبي راس الناصري" ،و"حسين الورتلاني" وغيرهم الكثير.

2.4.2. الرحلات العلمية: وهي الرحلات التي قاموا بها بغرض طلب العلم وزيادة والاطلاع على البلدان عموماً، ووصف الحياة العلمية وجوانب الحياة السياسية والاقتصادية، وكان هدفها الأساس طلب العلم، والبحث عن العلماء، والجلوس في حلقاتهم، والاستزادة منهم، وكانت أقدم رحلة في هذا العهد لعشور ابن موسى القسنطيني ، المعروف بالفكرين ، نشأ في قسنطينة وأخذ العلم عن والده، شد الرحال لطلب العلم في عدة بلدان طالت غيبته عن بلدانه نحو العشرين سنة، كذلك زار المغرب الأقصى وتلمسان ،و السودان ، كان يكثر الحكايات واستحضار قطع الشعر ، وكذلك رحلة عبد الرزاق ابن حمادوش الذي عاش القرن الثاني عشر، فهي رحلة قام بها لطلب العلم والتجارة من مدينة الجزائر وقد وصف الحياة العلمية وجوانب من الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب والذي زاره مرتين على الأقل وسجل ملاحظاته وانجازاته واحكامه في مذكراته فرحلة ابن حمادوش تميزت بطلب العلم والتجارة[1].

3.4.2. دوافع أدب الرحلة:

لا ريب وأن لكل رحلة أسباب ودوافع أدت إلى نشوئها ومن بينها:

1. **الدافع الديني:** ويعد أهم دوافع الرحلات إضافة إلى طلب العلم، ولأن الحج إلى مكة فريضة على كل مسلم ،وكان المسلمون يتجشمون راضين كل مشقة في سبيل أداء هذه الفريضة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة"[2]، بالإضافة الى حوافز

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 382-383.

[2] أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، جامعة عين شمس، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، 2007، ص 11.

أخرى تجعلهم يتحملون عناء السفر هو جمع الحديث من أفواه الرواة" فتجلى الدافع الديني بالأساس في الرحلات الحجازية، ولأن الحج ركن من أركان الإسلام، وكل إنسان يتمنى أن يؤدي فريضة الحج.

2. **الدافع العلمي:** عكف رحالة أمة اقرأ على خوض العديد من الرحلات طلبا أو نشر اً للعلم" بغرض الاستزادة من العلم في منطقة أخرى من العالم، أو نشر ما بين أيديهم من علوم، فذاع صيت أبناءها في مجالات العلوم كالفقه والطب والهندسة والعمارة وغيرها.

3. **الدافع الاداري:** وتسمى كذلك برحلة السفارة. وهي رحلة رسمية يقوم بها الرحالة بطلب من الحاكم لقضاء حاجة قد تتعلق بشأن البلاد، كما قد تخص الحاكم نفسه، ورغم أن هذا النوع من الرحلات مرتبط بتنفيذ طلب الحاكم إلا أنها تكسب الرحالة معلومات هائلة من السفارات المثمرة ثقافيا، ولم تكن هذه الرحلات رسمية بحتة بل امتزجت في كثير من الأحيان بالدين والعلم لذا كان أثرها بالغا على الرحالة وكتاباتهم.

4. **الدافع الاقتصادي:** كانت التجارة من أهم الدوافع التي دفعت الرحالة إلى تدوين رحلته بهدف إعانة القارئ على معرفة طرق التجارة البرية والبحرية، وأول ما ارتبطت به الرحلات، علم تقويم البلدان والمسالك والممالك، لوصف الطرق، والمناخ، والعديد من الأمور الأخرى وذلك لمعرفة الطرق إلى مكة للقيام بفريضة الحج، وتسهيل عملية التجارة في مختلف البلدان والبقاع. وكانت التجارة في موسم الحج ضرورة من ضرورات الحاج والمسافر، إذ لابد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرحلة"[1].

ونضيف إلى جانب هذه الدوافع الرئيسية للرحلة، دوافع أخرى تجعل الرحالة يغادر أهله ووطنه لينتقل إلى بلد آخر قصد الاطلاع على المجهول من جهة، وتحقيق المتعة

[1] نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط 1، عمان، 2008، ص47.

والترفيه لنفسه من جهة أخرى. ليكون بذلك العامل سياحيا. وهكذا "جاءت بعض الرحلات لجوب الآفاق والسعي إلى ارتياد البعيد، وامتطاء أجنحة الرياح حبا في المغامرة والترويح عن النفس، وقد امتدت الرحلة لتتجاوز ركب الحجاج أو المهام الرسمية، أو طلب العلم، فينتهز الراحل الفرصة مدفوعا بروح المغامرة والاستكشاف، والشوق إلى المجهول، ليجول في البلاد (...)، يريد أن يرى كل شيء ويجرب كل شيء"[1]، وهذا النوع من الرحلات يزود الرحالة بمعارف عدة تشبع رغباته وترضي نوازعه.

كما قد تكون من دوافعها الرغبة في إحداث التغيير في وطنه، وذلك عن طريق محاولة نقل مظاهر النهضة والتطور من ذلك البلد الذي زاره على أن تكون ملائمة وموافقة لمبادئ وطنه وتطبيقها.

[1] نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص195.

الفصل الأول:

أنواع المكان في الرواية

1. مفهوم المكان عند الفلاسفة والنقاد
2. أنواع المكان في رواية "رحلتي إلى بلاد السافانا

تمهيد:

نتطرق في هذا الفصل إلى مفهوم المكان في الرواية، مع الإشارة إليه كمقولة فلسفية أثارها الإنسان منذ القدم، إضافة إلى أهم آراء النقاد والأدباء العرب، وكذا أهم الدراسات النقدية العربية التي عالجت موضوع المكان.

ولأن موضوع المكان في الرواية متشعب، سنحاول التطرق في هذا الفصل إلى أنواعه مع إبراز كل نوع من خلال الرواية التي بين أيدينا "رحلتي إلى بلاد السافانا" ليكون البحث تطبيقيا أكثر.

وكنظرة أولية التمسنا من خلال طرح الكاتب في الرواية محاولته الواضحة للفت انتباه القارئ إلى أدب لا نكاد نلتفت إليه، ألا وهو أدب إفريقيا أو أدب الساحل أو الصحراء الكبرى وهي التي جعلها مكانا مركزيا لروايته.

1-مفهوم المكان عند الفلاسفة والنقاد:

1-1- مفهوم المكان:

يعتبر المكان مكونا أساسيا في بناء الرواية، وتطرقت إليه الكثر من الكتب والدراسات من بينها "جماليات المكان" لـ "غاستون باشلار" في يقول: "المكان هو المكان الأليف، وذلك هو البيت الذي ولدنا فيه، أي بيت الطفولة، إنه الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة ، وتشكل فيه خيالنا، فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة، ومكانية الأدب العظيم تدور حول هذا المحور"[1]، أي أن المكان حسب تعريفه هو الموضع الأليف ويمثله بالبيت الذي ولدنا وعشنا فيه ، فهو حالة ذاتية يتذكر فيه الفرد ذكرياته وأيام طفولته.

كما تعرفه أيضا "سيزا قاسم" بقولها: "المكان هو الإطار الذي تقع فيه الأحداث"[2] فالمكان بالنسبة لها هو الخلفية التي تقع فيها الأحداث الروائية، فلا يمكن أن تكون رواية بلا مكان، لأن كل حدث يأخذ وجوده في حيز محدد ، فوجود المكان يمكننا من التمييز بين الأشياء وهذا من خلال وضعها في المكان.

ولم يتم التطرق إلى مصطلح المكان في الأدب بالرغم من أنه مجسد في الأعمال الأدبية بوصفه آلية لدراسة هذه الأعمال إلا في القرن العشرين مع ظهور الرواية الواقعية، "إن المكان من السمات التي ميزتها حيث حددت العالم الحسي الذي تعيش فيه شخصياتها وجسدته تجسيدا مفصلا"[3]، فهو أحد عناصر السرد الذي لا يمكن تصوره دونه.

---

[1] غاستون باشلار ، جماليات المكان ، تـ غالب هلسا، ط 2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع ، لبنان، 1984 م، ص06.

[2] سيزا قاسم ، بناء الرواية (د راسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ) ، مهرجان القراءة للجميع ، 2004 م ،ص 106.

[3] احمد حفيظة ، بنية الخطاب في الرواية النسائية الفلسطينية ، دراسة نقدية ، مركز أوغاريت الثقافي، فلسطين ، ط 1، 2007 ، ص119.

1-2-عند الفلاسفة:

في البداية نشير إلى أن هذه القضية قد شغلت اهتمام الفلاسفة القدماء حتى قبل سقراط، وإن لم يفردوا لها كتبا مستقلة أو لم يقدموا تصورا منظما، إذ نجد أن أول من استعمل المكان في الفلسفة هو أفلاطون "إذ عده حاويا وقابلا للشيء"[1]، ما معناه أن المكان يشمل الأشياء، ولم يتخذ طبيعة ما على وجه من الوجوه، فهو يتغير بتغير الطبيعة، مما يعني أن أفلاطون يرى أن المكان غير مستقل وإنما يتغير و يتجدد.

ولم ينته الاهتمام بالمكان عند أفلاطون بل أخذ مفهوم المكان أهمية متميزة في أبحاث الفلاسفة، بالرغم من اختلافهم في تحديد مفهومه كل حسب منطلقاته ، إلا أنهم خصصوا له مكانة خاصة في مؤلفاتهم . فالمكان عند أرسطو طاليس "موجود ولا يمكن نفيه أو إنكاره، فالمكان موجود ما دمنا نشغله و نتحيز فيه، وكذلك يمكن إدراكه عن طريق الحركة"[2]، فالمكان عنده موجود ما دمنا نشغله ويدرك عن طريق الحركة. وقسم بدوره المكان إلى قسمين قسم عام وقسم خاص؛ "فالعام هو الذي فيه الأجساد كلها و(الخاص) وهو الذي أول ما فيه الشيء، وهو الذي يحويك وحدك لا أكثر منك. ويتميز المكان العام أنه يساوي مجموع الأمكنة الخاصة. أما المكان الخاص فلا يحوي عند أرسطو طاليس أكثر من جسم في زمان واحد"[3]، والمقصود أن المكان العام هو الذي يشغله جسمان أو أكثر، بينما المكان الخاص فهو المكان الذي شغله الجسم وحده.

أما الفلاسفة العرب فيتجلى بحثهم من خلال دراسات "الكندي" عن طبيعة المكان وماهيته، وعرف المكان على "أنه إذا زاد الجسم أو نقص أو تحرك، فلا بد أن يكون ذلك في

---

[1] حسن مجيد لعبيدي ، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، العراق، ط1، 1987، ص19.

[2] المرجع نفسه، ص28

[3] المرجع نفسه، ص29.

شيء أكبر من الجسم و يحوي الجسم، ونحن نسمي ما يحوي الجسم مكانا"[1]، ويتجلى مفهوم المكان من خلال قوله بأنه من يحوي الجسم، فقد أقر الكندي بوجود المكان وأخذ بموقف أرسطو من المكان.

بينما اختلف أبو بكر الرازي عنه فلم يأخذ بموقف أرسطو طاليس، ورفض هذا الموقف، فالرازي "أقر بوجود خلاء في العالم وعده ممكنا، وبرهن موقفه هذا بأننا لو رفعنا تفاحة مثلا من مكانها الخاص بها ، فإن المكان الذي كانت تشغله يصبح هو المكان الكلي(الخلاء) وعلى هذا يمكن أن نتصور وجود الخلاء على أنه: قوة جاذبة للأجسام، كما يرى أن المكان يدرك بالوهم، لأنه ليس جرما معينا يشار إليه[2]، فالمكان كان جزء من البحث الفلسفي، كونه تجليا لأبعاد الإنسان والأشياء، وذلك قبل أن ينتقل إلى النقد الأدبي.

1-3-عند النقاد:

شغل المكان اهتمام النقاد و الباحثين على حد سواء ، فالمكان الفني يختلف عن المكان الواقعي الذي يعيش فيه الإنسان من خلال الطبيعة التخيلية التي يمتلكها هذا المكان، وهو ما ذهبت إليه سيزا قاسم بقولها: "أن مكان الرواية ليس المكان الطبيعي فالنص الروائي، يخلق عن طريق الكلمات مكانا خياليا له مقوماته الخاصة وأبعاده المميزة"[3]، والمكان هنا حسبها هو نتاج ذهني يمكن التعبير عنه بطريقة جميلة.

وبدأ الاهتمام بالمكان الفني "نتيجة لظهور بعض الأفكار والتصورات التي ترى العمل الفني على أنه مكان تحدد أبعاده تحديدا معينا. ومن صفاته أنه متناه، غير أنه يحاكي

[1] حسن مجيد لعبيدي ، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، ص33.

[2] المرجع نفسه، ص38.

[3] سيزا قاسم ، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ) ، مهرجان القراءة للجميع، 2004، ص104.

موضوعا لا متناهيا هو العالم الخارجي، الذي يتجاوز حدود العمل الفني"[1]، مما يعني أن المكان الفني متناه، لكنه يحاكي العالم الخارجي ولا يمكن أن ينفصل عنه.

2- أنواع المكان في رواية "رحلتي إلى بلاد السافانا":

اكتسى المكان أهمية بالغة لدى النقاد حتى أنهم فصلوه إلى أنواع، فمنها المفتوح والمغلق وسنحاول من خلال رواية رحلتي إلى بلاد السافانا دراسة الأنواع التي كان لها دور مهم في جمالية واتساق الرواية.

2-1-الأماكن المفتوحة:

"وهي الأماكن التي تطلق العنان للشخصية ولا تكبل حريتها ولا تقيدها، فيمكن لها التحرك بطواعية وحرية. فتتخذ الرواية في عمومها أماكن منفتحة على الطبيعة، تؤطر بها الأحداث مكانيا وتخضع هذه الأماكن لاختلاف يفرض الزمن المتحكم في شكلها الهندسي، وفي طبيعتها وفي أنواعها، إذ تظهر فضاءات وتختفي أخرى"[2].

ومن خلال الرواية نلحظ ثلاثة أماكن رئيسية وهي البلدان التي قضى فيها المؤلف رحلته وهي النيجر ومالي والسودان، وداخل هذه البلدان أماكن أخرى تخدم في مجملها الطابع الرحلي.

2-1-1- البلدان:

أولا/ النيجر: تبدأ الأماكن المفتوحة في الرواية بنصيحة الكاتب لزائري دولة النيجر بقوله: "إذا ساقتك الأقدار لزيارة النيجر، إياك أن تزورها في فترتين مترادفتين، أولاهما خلال

[1] مجموعة من الباحثين ، جماليات المكان ، عيون المقالات ، ط 2، المغرب ، 1998 م ،ص 68.

[2] الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي، دراسة في روايات نجيب الكيلاني، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010، ص244.

شهري (ماي–جوان)، ثانيهما في عز الصيف"[1]، لما في هذين الفترتين من منغصات للراحة، أولها حر قائظ، وآخرها جلالة البعوض ونقيق الضفادع، كما نلتمس امتعاضه من الصورة النمطية التي ربط من خلالها الإعلام بين إفريقيا والأمراض بقوله: "ها أنت تجهز نفسك لزيارة النيجر، بعد أن كنت حريصا على أخذ وجبات التطعيم الوقائية، ضد الحمى والملاريا وغيرها من الأوبئة، التي ربط الإعلام، بين هذه الأخيرة وإفريقيا جنوب الصحراء"[2].

ويتجلى من خلال نصائحه أن هذه الرحلة لم تكن الأولى بالنسبة له لدولة النيجر حيث يقول: "لم أعبأ كثيرا بسؤال كيف هي نيامي؟ وكيف أدخلها؟ بحكم زيارتي السابقة ومعرفتي لدروبها"[3]، ورغم هذه المعرفة السابقة بالمكان إلا أنه لم يؤثر على طبيعته الأليفة لديه.

ثانيا/مالي: دولة داخلية هي الأخرى، وهي المحطة الثانية في الرحلة، وكما في النيجر نلتمس من خلال الرواية بؤس هذا البلد وغياب التنمية فيه في قوله: "رأى بعدسة عينيه، مشاهدا وأهوالا، لم تكن تخطر بباله أو تناهت لسمعه، من خطوب الطرق البرية المقطوعة وحياة البشر وعمران البدو الرحل هنالك"[4]، وهذا الوصف المسرود يحدد نمطية المكان، وطبيعته القاسية.

اتسمت رحلة مالي بالعلمية فأغلب مراحلها كانت في سبيل التعلم ومواكبة الباحثين عنه، "فعلا حماسة مغامرنا للماجيستير، وحلمه بها، هون عليه كثيرا من أتعاب هذا السفر المريب"[5]، فيروي صعوبات الترحال من خلالها فتارة الأمطار والطين، "من سرد أهوال الطريق الطينية موسم المطر"[6]، وتارة أخرى غبار الصحراء في قوله: "اكتفى صاحبنا بلف

---

[1] الصديق حاج أحمد، رحلتي إلى بلاد السافانا ، فنك للكتب، الجزائر، 2019، ص17.

[2] الرواية، ص21.

[3] المصدر نفسه، ص21.

[4] المصدر نفسه، ص86.

[5] المصدر نفسه، ص104.

[6] المصدر نفسه، ص86.

شاشه الكاكي حول رقبته، تحسبا لغبار طريق الموت وما بعده، مع ما يمكن أن يطرده معطفه الجلدي الدافئ"[1]، فرغم ارتباط الوصف بالسارد إلا أنه يستمر في إبراز قساوة المكان، وصعوبة الرحلة والإقامة.

كما يروي الكاتب عادات أهل البلد ومحاولة وقوفهم في وجه تضاريسها ومناخها الصحراوي الصعب، فنجد سائقي الطريق يأخذون احتياطاتهم المعتادة لاتقاء مكر الصحراء وأخطارها. فيقول: "أمران أساسيان يحرص عليهما أصحاب المراكب أشد الحرص، الماء والوقود، والأول أشد فالطريق غير معبد، وأرض حماته الترابية والرمادية الخفيفة، تطمس معالم عجلات السير، بأول زوبعة رملية، وما أكثرها خلال السنة، لذلك يعمد السائق، إلى تعليق قربة الماء الجلدية البنية بأحد جوانب السيارة"[2]، وهذا التعايش مع قساوة المكان يوحي بألفته لدى سكان المنطقة وأصحاب المركبات.

عموما امتزجت رحلة مالي بمواكبة العلم، يتخللها صور لا تكاد تفارق الرحلة من قساوة المناخ إلى غياب التنمية وسبل التنقل في البلاد.

ثالثا/ السودان: هي المحطة الثالثة في الرحلة وقد عنونها "موسم الرحلة إلى الجنوب"، رغم بعدها جغرافيا إلا أنها الأقرب بالنسبة للكاتب، نظرا لكثرة التبادلات والمقايضات التجارية بين شعبي البلدين، فيقول في أول الرحلة: "ربما استقر في ذاكرتي، اسم السودان باكرا، حينها ارتبط هذا الاسم حصرا، بتجار قصرنا الطيني، الذين كانوا يمارسون التجارة برا، نحو دولتي مالي والنيجر، يذهبون بالتمور التواتية، ويأتون بالمواشي وبعض السلع من هنالك كالفحم والمهاريس الخشبية الخاصة بتكسير التمور"[3]، ليلقى الاهتمام على ظاهرة تعد مصدر رزق لشريحة كبيرة من سكان الجنوب الجزائري ألا وهي المقايضة، فالكل هنا يبادل ما يزيد

[1] الرواية، ، ص91.

[2] المصدر نفسه، ص95.

[3] المصدر نفسه، ص125.

عن حاجته بما يحتاجه من الآخر، في الطرف الآخر، وهي أول طرق التبادل التجاري البشري بلا أي تعقيد.

سرعان ما صحح الكاتب معلوماته عن المسافة بين السودان والجزائر عند درس الجغرافيا ليكتشف أنها ليست كما خيل له في البداية فيقول: "ليس ذلك المفهوم العالق بالمخيال الشعبي، لأهل قصور ناحيتنا، إنما المقصود به سودان آخر، يقع جنوب مصر"[1].

وعلى خلاف دافعي رحلتي الكاتب للنيجر ومالي، كان دافع رحلة السودان هو دعوة تلقاها من طرف الأمانة العامة لمجلس الشباب العربي الافريقي، ويقول في ذلك: "خريف 2017 دعيت من طرف الأمانة العامة لمجلس الشباب العربي الافريقي، التي يقع مقرها بالخرطوم، وهي إحدى الهيئات الاقليمية الدولية، التي تعنى بهموم الشباب الافريقي ومشاكله"[2].

2-1-2- المدن: ويعرفها حافظ صبري بأنها: "مكان يجمع شتات الشخصيات التي لا رابطة بينها غيره، فيصبح هو صلة الدم الجغرافية التي تقوم على أساسها شبكة العلاقات"[3]، وبذلك يصبح سكان المدن مجتمعا تجمعهم رابطة (المكان) أثر من أي روابط أخرى.

ونجد من خلال الرواية قيد الدراسة عديد المدن التي تدور حولها أحداث الرحلات التي قام بها الكاتب، وسنتطرق فيما يلي الى بعض هذه المدن.

---

[1] الرواية، ص126.

[2] المصدر نفسه، ص128-129.

[3] حافظ، صبري، الحداثة والتجسيد المكاني، مجلة ف صول، العدد يويو، 1984 ، ص 165.

أولا: نيامي: وهي عاصمة أول دولة زارها الكاتب يصفها من خلال روايته بالجسد المترهل فيقول: "كذا تجلى جسد نيامي المترهل"[1]، ويبرر وصفه هذا بعديد الأسباب والتي تتلخص كلها في غياب التنمية والمرافق الأساسية، فيقول: "الأولى، حرها قائط، وانقطاع الكهرباء بها مقرف جدا، الثانية، أمطارها الغزيرة، وما يتبع ذلك من استيقاظ صديق أهل الديار، جلالة البعوض، وحروب جنوده الليلية المنغصة"[2]، كما يصف الكاتب التركيبة البشرية لسكان نيامي فيقول: "عند أثرياء هذه البلدة الطريف، لأهل الفضة، من ذوي البشرة الحمراء (العرب والطوارق)، كذا أصحاب المال من قبيلتي الرزما المحلية (نيامي)، أو قبيلة الهوسا"[3]، ولعل أكثر ما ضايق الكاتب في هذه المدينة هو استفحال ظاهرة الرشوة وغزوها لكل مناحي الحياة وتركيزها على الضروري منها كالكهرباء، فيقول: "في الحقيقة هؤلاء العمال والموظفون، لا يفعلون ذلك منافحة للشركة وسؤال الضمير، بل لأخذ الرشوة اليسيرة من الزبون، رجاء غض مقصهم عن عداده، بعد نفاذ فترة التسديد، نظرا لسريان وقابلية نظرية الرشاوي وتعاطيها، لدى المواطن هنا، من البسيط حتى السامي"[4]، لكن الكاتب رغم كل ما سبق يلتمس بصيص أمل في طبيعة السكان هنا فيصفهم: "الناس هنا بسطاء، طيبون، متسامحون"[5].

يمعن الكاتب في وصف الحياة في نيامي من مناخها، مرورا ببنية عمرانها إلى تركيبتها السكانية، وحال سكانها، بحكم أنها محطته الأولى وكذا معرفته السابقة بها.

ثانيا: الجزائر العاصمة: كانت إحدى محطات الكاتب في رحلته الأول إلى نيامي، ويصف مروره بها بذكر بعض الأماكن، وخصوصا المكتبات التي زارها، في متسع الوقت

---

[1] الرواية ، ص17.

[2] المصدر نفسه ، ص17.

[3] المصدر نفسه ، ص18.

[4] المصدر نفسه ، ص19.

[5] المصدر نفسه ، ص 20.

الذي حضي به بين الحجز والسفر، فيقول: "المهم كان من الوقت متسع، لزيارة بعض مكتبات العاصمة، لا سيما مكتبة العالم الثالث، قرب البريد المركزي"[1]، كما يصف بعض التغيرات على مطار الجزائر كالقطار الذي امتدحه قائلا: "فشروع قطار المطار، في الاستخدام مؤخرا، نحو محطة (آغا) قلب العاصمة، يحرضك على زيارة العاصمة لوقت وجيز، عكس تراجيديا السابق"[2]، ومن الواضح أن المؤشرات المكانية التي سماها (مكتبة العالم الثالث والبريد المركزي) تدل على ارتباطه العاطفي بالمكان.

ثالثا: رقان: كانت النقطة الأولى في الرحلة نحو مالي في قوله: "على أية حال لم يكن السفر الأول لمدينة رقان صعبا، كونها أول نقطة من الرحلة برا نحو مالي"[3]، لكن المشكل هنا هو اهتراء الطرقات وشح وسائل النقل، ويتجلى ذلك في قول الكاتب: "تذكر صاحبنا ما قاله له الزايدي من اقتصاد النقل وشح المراكب بعيد العيد مباشرة"[4].

رابعا: الخرطوم: عاصمة السودان وثالث محطة في رحلة الكاتب ويصفها بقوله: "هكذا بدت لي الخرطوم مدينة إفريقية بامتياز، تشبه تلك العواصم الإفريقية، التي زرتها من قبل كنيامي، ووقادوقو، لولا بعض الفروق في اللمسة الفرنكوفونية المميزة لتلك العواصم"[5]، لكن الكاتب هنا وعلى عكس الرحلتين الأولى والثانية فإنه يلمس الشبه بينه وبين سكان الخرطوم، ويقول في ذلك: "ألفيت نفسي نهارا، بين أناس أشبههم أو يشبهونني، لا أكاد أجزم بأي طرف، كل الذي أقطع به أن هناك قواسم مشتركة تجمع أهل قصورنا الطينية"[6].

---

[1] الرواية ، ص22.

[2] المصدر نفسه ، ص23.

[3] المصدر نفسه ، ص89.

[4] المصدر نفسه ، ص90.

[5] المصدر نفسه ، ص135.

[6] المصدر نفسه ، ص134.

ولا تقتصر رحلة الكاتب على ما سبق ذكره من مدن بل هناك الكثير كالقاهرة وتمنراست وأدرار، وغيرها الكثير.

2-1-3- الشارع: تعددت الشوارع في الرواية، والتي تعتبر هي الأخرى من الاماكن المفتوحة التي دارت فيها أحداث الرحلة، فينتقل الكاتب من مدح الشوارع تارة لبعض مميزاتها كالاتساع في قوله، كما ستسعد باصطياد حسنة أخرى من حسنات نيامي، وهي اتساع شوارعها وممراتها، سواء تعلق الأمر بقلب العاصمة، حيث الوزارات والإدارات الحكومية والسفارات"[1]، ليتحول إلى ذمها في موضع آخر فينتقد غياب التعبيد وطينية الشوارع في قوله عن الشارع "المفتوح على الشارع الطيني غير المعبد، الواسع المشجر"[2].

2-2-**الأماكن المغلقة:** هي أيضا من الأماكن الرئيسية التي تدور حولها أحداث الرحلة، ويمكن تعريفه بإيجاز، وهو "الذي يحوي حدود مكانية تعزله عن العالم الخارجي، ويكون محيطه أضيق بكثير بالنسبة للمكان المفتوح، فقد تكون الأماكن المغلقة مرفوضة لأنها صعبة الولوج، وقد تكون مطلوبة لأنها تمثل الملجأ والحماية التي يأوي إليها الإنسان بعيدا عن صخب الحياة"[3]، وتعددت الاماكن المغلقة في الرواية وتنوعت بين المقاهي والمكتبات والجامعة والمنازل وغيرها وسنتطرق فيما يلي إلى بعض الأماكن المغلقة في الرواية التي دارت حولها الأحداث.

أولا: المنازل: وهو مكان في غاية الأهمية لحياة الانسان، يأوي إليه اتقاء قساوة الطبيعة من حر وقر، وتعدد المنازل التي زارها الكاتب من خلال الرواية كما ونوعا فينتقل من المنازل الفخمة تارة ونلتمس ذلك في قوله، "على أية حال، مسكنه فيلا بيضاء جميلة،

---

[1] الرواية، ص36.

[2] المصدر نفسه ، ص42.

[3] نجلاء سلمى، خديجة مسعي عون، بنية الخطاب السردي في أدب الرحلة من خلال كتاب رحلاتي لبلاد السافانا للحاج الصديق أحمد، مذكرة ماستر، كلية الآداب واللغات، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، 2020-2021، ص31.

قل عنها، تحفة، تتسمر هذه الأخيرة، داخل إحاطة واسعة، مزانة بالأشجار والورود"[1]، إلى البيوت الطينية والأكواخ تارة أخرى، "من مفارقات نيامي العجيبة، إذ تنبت أكواخ وأعشاش، تدور بتلك المساكن الفارهة، ولا تعجب إذا قلت لك تلتصق بها التصاقا أحيانا"[2]، والتناقض في المنازل وقيمتها هو امتداد للتناقض الحاصل في كل مناحي الحياة في هذه الرحلة.

ثانيا: المكتبات: تتبع الأماكن لما لها من أثر كبير في عكس ثقافة وتطور روادها، لتنوع العلوم والمعارف التي تحتويها، وقد كان لها نصيب من الذكر في تحركات الكاتب المختلفة، فينطلق بداية من المكتبات الجزائرية، ويقول: "كان من الوقت متسع، لزيارة بعض مكتبات العاصمة، لاسيما مكتبة العالم الثالث، قرب البريد المركزي، بشارع العربي بلمهيدي، من أجل اقتناء بعض الاصدارات الحديثة في الأدب وحقل التخصص العلمي طبعا[3]، ولارتباط مدى ثقافة كل شعب بمدى تعلقه بالكتاب نجد أن الكاتب في رحلته للسودان قد توجه لمعرض الكتاب الدولي، قصد الاطلاع على المشهد الثقافي للبلد، فيقول: "في اليوم الثاني من زيارتي للخرطوم، قصدت معرض الكتاب الدولي، برفقة الصديق مهند دائما، وهي فرصة مواتية، للاطلاع على المشهد الثقافي السوداني"[4].

ثالثا: المطار: هو كذلك من الأماكن المغلقة لكن الغرض منه السفر عبر الطائرة ولأن كاتبنا كثير الترحال في الرواية، فلابد من مروره على أكثر من مطار ليسرد التفاوت بين كبر وخدمات كل مطار من المطارات التي سافر عبرها، فينطلق من مطار الجزائر الدولي، ويسرد بعض إجراءات السفر المعهودة عبر المطارات، فيقول: "المهم أتممنا جميع الطقوس السفرية المعهودة في المطارات الدولية، من دمغ الجوازات، وختم تاريخ خروجها، والتحقق

---

[1] الرواية، ص51.

[2] المصدر نفسه ، ص52-53.

[3] المصدر نفسه ، ص23.

[4] المصدر نفسه ، ص142.

الدقيق من هوية صاحبها"[1]، وبالعودة إلى التفاوت بين المطارات يبرز الكاتب هذا الاختلاف بين المطارات ويقسمها بين المتواضع إلى الكبير، مرورا بالمتوسط، فيقول: "المطار متواضع نوعا ما، ليس بتلك الملاحة الجوية الكبيرة، بميناء القاهرة الدولي، أو المتوسطة بمطار الجزائر الدولي، لكن في كل الأحوال، ليس كما مطار نيامي الدولي المتواضع جدا"[2].

رابعا: الجامعة: هي مرفق من مرافق التعليم، من خلالها يتخصص الطلبة، في الفترة النهائية قبل التوجه إلى الانتاج والشغل، ولأن كاتبنا باحث ومحاضر جامعي، لابد من أن تكون الجامعة ضمن محطاته في الرواية، وهذا ما نجده من خلال إبداء رأيه في جامعة نيامي وتواضعها ومصادر تمويلها في قوله: "على أية حال، هي جامعة متواضعة، تعتمد في ميزانيتها وإدارة أحوالها، على المساعدات والهبات، لاسيما الخليجية منها"[3]، ونظرا لارتباط كاتبنا الشديد بالجامعة والمحاضرات، كان يطلب منه في كل محطة إلقاء محاضرات، كما يقول: "الليلة الأولى بالحي الجامعي المتواضع في ساي، طلب مني الأستاذ السوداني، إلقاء محاضرة بمسجد الطلبة"[4]، ولم يكتفي بذلك بل ألقى محاضرة أخرى في كلية البنات بنيامي، فيقول: "ألقيت بهذه الأخيرة محاضرة أخرى في التخصص أيضا"[5].

خامسا: الفندق: مكان مغلق يأوي إليه قاصدوه، للمكوث به لوقت محدد بأجر معلوم، وأكثر ما يقصده المسافرون، وبما أن رحالتنا يعتمد على التنقل بالدرجة الأولى، كان لزاما عليه أن يقيم فيها لبعض الوقت، ويروي هنا عن مبيته في فندق عند ذهابه إلى السودان فيقول: "توجهت بنا سيارة الهيئة الراعية، نحو فندق كورال (الهيلتون سابقا)، المطل على مقر النيل، وهو من أقدم فنادق الخرطوم وأفخمها، حيث كان هذا الأخير، طيلة العقود الماضية،

---

[1] الرواية، ص24.

[2] المصدر نفسه ، ص133.

[3] المصدر نفسه ، ص79.

[4] المصدر نفسه ، ص80.

[5] المصدر نفسه ، ص81.

محل إقامة الرؤساء والوفود الرسمية"[1]، ونلتمس كثرة ارتياده الفنادق، في رحلته إلى السودان حصرا، لقلة معارفه عكس رحلته إلى نيامي، كما عبر عن استيائه من مواعيد الطعام وبالضبط تأخير وجبة الغداء، في قوله: "عدنا بعدها إلى الفندق في حدود الساعة الخامسة مساء، وقد استغربت تأخير أهل الخرطوم للغداء، بحيث لا تقوى على تناول العشاء، وهو ما كان معي بالفعل، فاعتذرت للمنظمين من اعفائي لوجبة العشاء، كوني شعرت بامتلاء عند الغروب"[2].

سادسا: الخيمة: وهي عبارة عن بيت من الشعر أو الوبر تنتصب على وتد، مثبتة على الأرض، سهلة البناء والتنقل، تناسب في الأساس البدو الرحل، وهواة التخييم خاصة الصحراء، ويسرد الكاتب عن عزلة ساكنيها وبعدهم عن رموز الحضارة فيقول: "من المؤكد أن نبأ قدومه للخيام قد سبقه، بواسطة هاتف الثريا، فتلك الخيام المعزولة، حفزت أحفاد الشيخ باي"[3]، ورغم افتقار ساكن الخيمة إلى كل متطلبات التمدن، إلا أنها لا تكبح باحث العلم، فيقول: "على أية حال، لم يكترث صاحبنا، لا قليلا ولا كثيرا، من انعدام أسباب التمدن التي ألفها، خلال عشرين يوما قضاها عاكفا في الخيمة، يقلب مخطوطات الشيخ سيدي حم، وشيخه السيد باي"[4]، وضروريات الترحال تحتم محدودية أنواع الطعام، التي يحملونها، فيصفها في قوله: "لا تسأله عن الأطعمة والأشربة، المعروفة بتلك الحلات والخيام، لسبب بسيط، قلة أنواعها وتشابهها، فأما أولها، من جهة الطعام، فلا يعدو، أرزا، أو معكرونة، أو عصيدة، أو تقلة، أو مخفيا وفقط"[5]، وهذا ما يعكس صعوبة حياة أهل الخيام والبدو

[1] الرواية ، ص134.
[2] المصدر نفسه ، ص140.
[3] المصدر نفسه ، ص116.
[4] المصدر نفسه ، ص118.
[5] المصدر نفسه ، ص122.

فبالإضافة إلى انعدام ضروريات التمدن، هناك صعوبة التنقل والاتصال، يضاف إلية محدودية أنواع الطعام المتوفرة.

مركزيـة الصحراء: الصحراء، تلك البقعة العذراء، ومد البحر الذي لم ترض أمواجه بغير الذهب لونا لها، كانت ولا تزال مصدر إلهام لا ينضب للشعراء والكتاب، الباحثين عن الاختلاف، المبتعدين عن رتابة التمدن المملة، سميت بالصحراء ونعتت بالبيداء، وغيرهما الكثير، كل يسميها بقدر تعلقه، وبقدر ما تمنحه بيئتها من مساحات أرحب للخيال، وصرحا أكبر للتأمل الفلسفي، "ظلت الصحراء طيلة هذه القرون الماضية تثير خيال الشعراء والأدباء والفنانين وتستهوي أفئدة كثير من الرحالة والمغامرين والباحثين، كما كانت مسرحا للبطولة والفروسية التي سجلتها السير الشعبية والملاحم"[1].

والكتابة حول موضوع الصحراء، لم تقتصر على القدماء، بل لازمت الكتاب والشعراء على مر العصور، ولعل الصديق حاج أحمد، كاتب رواية "رحلاتي لبلاد السافانا" واحد منهم، وينعكس ذلك في اختياره لها ميدانا للترحل والبحث، عكس سواد الباحثين والأدباء، ممن اختاروا السهولة في كتاباتهم.

وركز في رحلاته إلى الصحراء الكبرى، والتي تعرف أيضا بمنطقة الساحل، على استكشاف البيئة الصحراوية، فبدأها من النيجر مرورا بمالي وصولا إلى السودان، ثلاث دول تكاد تشبه بعضها في كل شيء، من غياب التنمية إلى صعوبة الحياة رغم الرغبة الجامحة لساكنيها في حياة أفضل، حياة حرمهم منها حكام آثروا خدمة المستعمر القديم على خدمة أوطانهم، هذا الأخير برع كعادته في إقناعهم، بمحدودية تفكيرهم وقلة حيلتهم لمجاراة الرجل الأبيض في الذكاء والتطور، بل وانتظار ما يجود به عليهم من معونات لا تعادل جزء يسيرا

[1] صلاح صالح. الرواية العربية والصحراء. وزارة الثقافة. دمشق. ط1، 1996، ص35.

مما نهب وينهب من أوطانهم، هي نغمة قديمة متجددة لا يريد المستعمر أن يمل سردها خدمة لمصالحه.

يروي الكاتب بكل قهر في ثنايا روايته، كل جراح وآلام ساكني هذه البقعة البائسة من الأرض، نراه في البداية يلوم عزوف السرديات العربية، عن الكتابة والبحث حولها، فيقول: "لا جدال أن السرديات العربية –غفر الله لنا ولها– أهملت الجوار الجغرافي الافريقي عموما، سواء تعلق الأمر، بمنطقة الساحل، التي يصطلح عليها أحيانا، الجزء الشمالي للسافانا"[1]، ويبرر هذا العزوف في قوله: "في الحقيقة قد نعتصم إلى مبررين أساسيين، في تفسير هذا الهجران المريب، نعتقد أنهما على علاقة غرامية، بأسباب هذا المنكر، أحدهما، دوخة المنظومة التربوية العربية، في شعاع سنا الشمال من كوكب الأرض، ثانيهما، نظرة التعالي والدونية، التي يضعها الكاتب العربي غالبا بينه وبين مولاتنا إفريقيا"[2]، كما يلوم بحرقة تلك اللوبيات التي تعكف بلا كلل على تهميش البحث حول كل ما يخص الصحراء والتقليل من شأنه، ونعتها دوما بالبؤس والحروب والأوبئة، "ما هي إلا، بؤر للبؤس، والحروب الأهلية، والأوبئة، أو قل الموت فذاك أبلغ بهذه الأوصاف المرعبة"[3].

ولأن الرحلة بدأت من النيجر، سنبدأ منها مبرزين الرسائل التي ضمنها الكاتب بين سطور روايته، وتبدأ أولى الرسائل في أول جملة، فيقول: "إذا ساقتك الأقدار"[4]، في رمزية أن السفر إليها ليس رغبة، وإنما إذا أرغمت على زيارتها، وهذا دليل على النظرة السلبية التي رسمها الإعلام غفر الله له عنها، ويردف بعدها مبينا بعض النصائح لزائريها المحتملين، بل قل منفرات بدل نصائح، حين يقول: "إياك أن تزورها"[5]، وقصده هنا تبيان الواقع لا أكثر،

---

[1] الرواية، ص9.

[2] المصدر نفسه ، ص9.

[3] المصدر نفسه ، ص10.

[4] المصدر نفسه ، ص17.

[5] المصدر نفسه ، ص17.

ويحكي واقعها في نقطتين: "الأولى؛ حر قائظ، واقطاع الكهرباء بها مقرف جدا، الثانية؛ أمطارها الغزيرة...وجلالة البعوض"[1]، هذا إن دل على شيء فإنما يدل على انعدام تام للتنمية في البلد، وفساد من حكموه، الذين لم يكتفوا بعدم توفير الكهرباء للسكان، بل ونغصوا نومهم البائس بأصوات محركات مولداتهم الكهربائية، "مع اختلاطها بأصوات المحركات الكهربائية المولدة الصغيرة والمتوسطة، عند أثرياء هذه البلدة"[2]، أثرياء لم يرو وطنهم سوى أداة ربح لا أكثر، وخدمة مصالح الأعداء، والفساد عندهم سنة مؤكدة، فيقول في ذلك: "التي اغتنى أولادها، ونالوا الدرجات العلا بالخارج، فأمسوا وزراء وسفراء وضباطا سامين، اتخذوا من نيامي مستقرا ومقاما، بحكم مناصبهم السامية، ومن ثمة التراخي بعد التقاعد، حيث اليد مملوءة بالرشوة"[3].

وتنغيص حياة الفقراء لم يقتصر على الحكام فقط، بل استشرى لدى كل من وجد فسحة من المسؤولية، تمنحه ما تيسر من رشوة يضاعف بها راتبه، حتى الموظفون لدى شركات الكهرباء، لم يرحموا حين تمكنوا، "في الحقيقة، هؤلاء العمال والموظفون، لا يفعلون ذلك منافحة للشركة وسؤال الضمير؛ بل لأخذ الرشوة اليسيرة من الزبون"[4]، سكان هذه البلاد طيبون رغم بؤسهم، تشعرك حالهم بأنك أغنى الناس، "الناس هنا بسطاء، طيبون، متسامحون، فبحكم كونك سائحا، معك الدولار أو اليورو...قلت ستجد نفسك غنيا، بالنظر للبنية الاجتماعية الهشة، وخيبة الجيوب والبيوت، لما يؤكل ويلبس"[5].

بعد أن تحالف أعداء هذا البلد وحكامه، في سبيل نهبه وإفقار أهله، جادوا عليهم ببعض ذل المنظمات الأجنبية، التي أمست وصيا على هذا الشعب، "وأنا موقن وأنت تتجول

---

[1] الرواية ، ص17.

[2] المصدر نفسه ، ص18.

[3] المصدر نفسه ، ص18-19.

[4] المصدر نفسه ، ص19.

[5] المصدر نفسه ، ص20.

فـي نيـامي، خـلال أيامـك الأولـى مـن أول زيـارة، ستكتشـف مـدى زراعـة منظمـات الإغاثـة والإعانات الانسانية، لا سيما الخليجية والغربية"[1].

وكل ما سبق لا يعدو أن يكون جزء يسيرا مما حاول الكتاب تبيانه لحال وبؤس سكان مدينة نيامي في دولة النيجر، ورغم محاولته إبراز بعض بصيص حياة، مثل حفلات الزواج التي حضرها، وبعض العمران المتناسق الذي يخص طبقة الأغنياء، إلا أنه نغص ذلك بذكر بيوت القصدير والطوب للفقراء، هذا هو مختصر حال نيامي التي تشبه إلى حد بعيد ما سيلي ذكره من مدن.

[1] الرواية، ص34.

الفصل الثاني:

دلالة الأمكنة في الرواية

1- البعد الاجتماعي:

تناقش الرواية الكثير من الظواهر الاجتماعية والحضارية بما فيها التفاوت الموجود إفريقيا والغرب على كافة المستويات، ولعل السبب الأول لهذا التفاوت هو الخلفية الاستعمارية ونظرة الاستعلاء من طرف الغرب لإفريقيا بصفة عامة ومنطقة الساحل بصفة خاصة، لما تعانيه من تخلف وجهل واستبداد سياسي، وحرمان اجتماعي وتردي للقيم.

ونلتمس حالة البؤس الاجتماعي في الرواية، في أول صفحة منها، في قول الكاتب: "إلى ماما أفريكا المغبونة"، حيث أن كل ما سبق ذكره من أسباب ساهمت بشكل أو بآخر في خلق واقع اجتماعي متعفن، زاد من معاناة السكان الموجودة أصلا، وهذا ما نلمسه من خلال تطرق الكاتب إلى السمة القبلية التي تميز البنية الديموغرافية للمنطقة، ومستوى التفاوت الخيالي بين قبيلة وأخرى، ستكون محظوظا مثلا لو ولدت بقبيلة "الزرمة" أو قبيلة "الهوسا"، لأنك ستجد فيها الغنى والمناصب المرموقة سنة أبدية، في قول الكاتب: "كذا أصحاب المال من قبيلتي الزرما المحلية (نيامي) أو قبيلة الهوسة الشمالية...التي اغتنى أولادها ونالوا الدرجات العلا بالخارج، فأمسو وزراءً وسفراءً وضباطا سامين"[1]، بينما لو كنت قد ولدت في غير ذلك من القبائل، فمرحبا بك في حياة البؤس والفقر حيث ستفتقد لأبسط حاجيات الحياة كالماء والكهرباء التي ستسجدها ترفا قل منالـه، وستجد موظفي خدمة الكهرباء من بني جلدتك ومن مستوى طبقتك، يتفننون في تنغيص حياتك بقطع الكهرباء إن لم تدفع أثمانها الباهظة، ليس حبا للعمل بل طمعا في سخاء جيوبك الفارغة أصلا لترشوهم، ففي هذا البلد لا تطلب الرشوة خلسة، ويبزها الكاتب من خلال قوله: "هؤلاء العمال والموظفون، لا يفعلون ذلك منافحة للشركة وسؤال الضمير، بل لأخذ الرشوة اليسيرة من

[1] الرواية، ص18.

الزبون"[1]، تسجد يا عديم الحظ هنا أيضا مظاهر القمامة وتغول الفقر بخرائطه العبثية، مواصفات يكتبها لك القدر مع شهادة الميلاد.

بعيدا عن الطبقية الاجتماعية التي سنعود إليها لاحقا، لا ضير في ابراز بعض الصفات المميزة للسكان هنا، حيث هم هنا طيبون متسامحون خصوصا إذا كنت سائحا ممتلئ الجيوب، فأنت هنا أغنى الناس نظرا لما سبق توضيحه من حالة الفقر سالفة الذكر، فالنقود هنا تغير الكثير من الطباع كما يبدوا، فبمجرد نزول الكاتب في مطار نيامي، نجده يقابل شابا فهم هو الآخر كيف يكسب الزبائن بلباقة وخفة ظل أثارت استغراب الكاتب، الذي يدرك بعدها أن تلك اللباقة لم تكن بلا مقابل، بل باعه الشريحة أضعاف سعرها، وهذا الشاب هو مثال بسيط عن جل سكان المنطقة، حيث الفقر والتهميش يبدع في تطوير حيلهم، بغية كسب قوت اليوم لا أكثر، حياتك هنا إما أن تجتهد في كسب الرزق، أو تنتظر منة المنظمات الدولية التي تنتشر في الأرجاء، تزداد كثرة كل يوم، ولو كنت تملك ما ترشو به لجنة الاعتماد الوزارية، فمرحبا بك لتفتح فرعا لمنظمة ما وتسترزق بعدها، ويبرز الكاتب ذلك في قوله: "أنا موقن، وأنت تتجول في نيامي، خلال أيامك الأولى من أول زيارة، ستكتشف مدى زراعة منظمات الإغاثة والإعانات الإنسانية...إذ يكفي أن تكون لك علاقة، مع إحدى المنظمات الخارجية، وتأخذ منها صفة التمثيل بالنيجر، وتمتلك بيتا...تستطيع تثبيت شارة توجيهية أمام مسكنك"[2].

أما فيما يخص حالة التقشف التي ابتكرها السكان هنا، التي تكاد تكون فريدة من نوعها، فأصحاب الدكاكين الصغيرة هنا، قد جزئوا المجزأ حرفيا، ما يتناسب وجيوب زبائنهم، ما مكن الزبون هنا أن يطلب حتى 10 غرامات من السكر أو الشاي دون أدنى حرج، بل تعدى ذلك الدكاكين الصغيرة إلى المصانع الكبرى كشركة (ريمبو)، هنا يعيش السكان كل

[1] الرواية، ص19.

[2] المصدر نفسه ، ص34.

يوم بيومه، يقتني ما يحتاجه، من دون أدنى إسراف، ونجد ذلك في قول الكاتب: "يشتري رب الأسرة، ما يصنع به غذاء اليوم وعشاءه، مع حليب إفطار الصباح وقضي الأمر"[1]، وهنا عليك أن تستثني أهل النعيم من هذا التصنيف "جزاك الله خيرا".

ولكل الدكاكين رغم قلة رأس مالها، ليست متاحة للكل، فهناك من السكان من اختار حمل سلعته على رأسه وتجول بها بين البيوت، بما يشبه على ما يبدوا خدمة توصيل مجانية، تجد عندهم كل ما تشتهيه نفسك، مقابل اعطائهم ما يشتهون من مصروف جيبك، ويعدد الكاتب أصناف سلعتهم في قوله: "جل الأشياء خاضعة للتجزئة ودورة الطواف بها، من جزارة اللحوم، إلى الماء المعبأ في أكياس بلاستيكية صغيرة شفافة، فضلا عن فاكهة المانجوا في فصلها، الخضر، البقوليات، الملابس، البهارات المحلية، السمك المجفف وغيرها، المهم قل في كل شيء"[2]، وإذا استوعب عقلك ما سبق لا أضنه سيعجز على استيعاب أن أصحاب الحرف أيضا قد صاروا جوالين، فليس غريبا هنا رؤية خياط يحمل ماكنة الخياطة على كتفه بكل لواحقها، أما أقسى ما قد تشاهده من أصناف التجار المتجولين هنا، هو أولئك الأطفال الذين ينتشرون في الأزقة، يلخصون في بؤس وجوههم حالة هذا البلد، احترفوا مرغمين قص أضافر المارة، وتنظيفها إن أمكن، بغية ثمن بخس يسدون به رمق الحياة.

أما حال المرأة في هذا المجتمع فهي لا تخرج عن السنة الطبقية السائدة، فهناك اختلاف شاسع في الحياة، اعتبارا للأصل وللقبيلة، والحالة الاجتماعية، فبينما تعيش المرأة العربية أو الطارقية، ملكة مبجلة لا تكاد تتعب نفسها حتى بشغل البيت كما يصفها الكاتب في الرواية: "المرأة العربية أو الطارقية، من البيضان...مستريحة مبجلة، لا تطبخ، لا تغسل،

[1] الرواية، ص38.

[2] المصدر نفسه ، ص39.

لا تكنس، لا تخيط، قل هي ملكة جالسة أو مستلقية على الفراش في أغلب الأحوال"[1]، وبالمقابل نجد المرأة المحلية الأصلية، عاملة مشتغلة تتحمل كل أعباء الحياة فهي الرجل والمرأة في ذات الآن، من تجول في الأسواق بيعا وشراء، أما أشغال البيت فلا نقاش فيها، في مفارقة عجيبة كما يصفها الكاتب: "عاملة مشتغلة في ذلك التجوال المجيد أو في مبادلة الأسواق، ولربما صادفت أغلبهن، يثنين صبيانهن خلف ظهورهن"[2].

وللتفاوت في العمران هنا قصة أخرى، من قصص التناقض العجيبة في هذه المنطقة، حيث الزنك والحديد الصدئ، صارا مادة أولية لبناء الأكواخ، أو كما شبهها الكاتب بالأعشاش، يقف عند مدخلها حمار، يعتبر وسيلة النقل الوحيدة للسكان هنا، فهو لا يتطلب منك ثمن الوقود ليعمل، فقط عليك تحمل رائحة فضلاته، وتزويده ببعض الحشائش لا أكثر، هي حياة البؤس بكل تفاصيلها، وهو ما دفع الكاتب إلى التساؤل، عن إمكانية أن يعيش إنسان في هذه الظروف، فيقول: "بالله عليك كيف يعيش المرء، تحت هذا الزنك، في أول الصيف الحار جدا، بلا كهرباء أو أدنى شروط الحياة"[3]، أما فيما يخص مصدر رزق البعض منهم، فهي عربات تجرها الحمير، يتخذها باعة متجولون وسيلة للتنقل، وبيع منتجاتهم، والسلعة الرائجة للمفارقة هنا؛ هي الماء، وهذا هنا الحال العام للسكان، حيث الأمية تكاد تشمل كل كبار السن والكهول هنا، أما طائفة الشباب فقد وجدت بعض تنفس، في مواقع التواصل الاجتماعي الرائجة هنا، ولعل أشهرها "الواتساب" الذي وجدو فيه بديلا عن الهاتف الثابت باهض التكاليف.

يكمل الكاتب رحلته البائسة عند الفقراء، لتأتيه عزومة لزفاف أحد الأثرياء ليبرز لنا من خلال تلبيتها حجم التفاوت بين الطبقات، فيبدأ بوصف المنزل الفخم بقوله: "على أية حال

---

[1] الرواية ، ص44.

[2] المصدر نفسه ، ص43.44.

[3] المصدر نفسه ، ص46.

مسكنه فيلا بيضاء جميلة، قل عنها تحفة"[1]، أما وسلة التنقل فهي سيارات الدفع الرباعي الفارهة، التي يتجولون بها بين الأحياء والماكن البائسة للفقراء، التي تقابلهم مباشرة، ونرى ذلك في: "من مفارقات نيامي العجيبة، إذ تنبت أكواخ وأعشاش، تدور بتلك المساكن الفارهة، ولا تعجب إذ قلت لك، تلتصق بها التصاقا"[2].

2- **البعد النفسي:** يهتم البعد النفسي، "بوقع الأماكن والأشياء على النفس، ومدى تأثرها بها مما يطبع الأماكن بطابع شعوري خاص...ولهذا أكثر كتاب تيار الوعي من هذا الوصف، في الوقت نفسه لم يهتم به كتاب الواقعية الذين اهتموا بالوصف الخارجي عن الطبيعة النفسية للشخصية"[3]، ومن هذا المنطلق نستنتج أن الوصف النفسي يعنى بالأحداث النفسية الداخلية للشخصية، وبطلنا في رواية "رحلاتي لبلاد السافانا" هو الكاتب نفسه، حيث نلتمس من خلالها العديد من الأبعاد النفسية التي حاول الكاتب إبرازها، من خلال تعابير وصفات تعكس لدى القارئ عديد الأبعاد النفسية، دون الحاجة إلى ذكرها حرفيا.

ونلتمس ذلك من البداية، حين يتحدث الكاتب عن منغصات العيش في الليل، فيقول: "انقطاع الكهرباء بها مقرف جدا...وحروب جنوده الليلية المنغصة"[4] حيث نجد أن صفتي (مقرف) و(المنغصة) هي صفات نفسية، تعكس كل منهما، حالة عدم الراحة التي حاول الكاتب توضيحها، ثم ينطلق الكاتب بعدها لنلتمس، محاولة توضيح إقدامه على تقديم قدمه للطفل كي ينظفها، فيقول: "في الحقيقة لم أقصد التلذذ بحفلة هؤلاء الأطفال لأظافري، بل لفضولي ورغبتي، بمعرفة طقس هذه الحرفة الغريبة"[5]، فالكاتب هنا يحاول إثبات أنه لم يقصد التلذذ بحالة البؤس لدى الطفل، بل كان قصده فقط التعرف على المهنة، وحالة الأسى

---

[1] الرواية ، ص51.

[2] المصدر نفسه ، ص52-53.

[3] مجلة فصول: جماليات التشكيل الزماني والمكاني لرواية "الحواف"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج 12،،1993 ، ص: 314.

[4] الرواية، ص17.

[5] المصدر نفسه ، ص40.

سنلمسها لدى الكاتب، بل ويصدرها للقارئ كذلك، هذه الفئة البائسة من الأطفال، تغيب عن محياهم ملامح الحياة، ولكن الكاتب حاول زرع بعض بسمة مؤقتة على وجه الطفل، بمنحه أكثر من أجرته، فيقول: "بعدها قدمت له قطعة نقدية تربو كثيرا عما كان ينتظره من مألوف سعر حرفته، على أية حال سر كثيرا، تهللت خدوده المظلومة، التي غصبت ابتسامته الفاقة، لعنها الله"[1].

وتعددت الأبعاد النفسية للكاتب في الرواية، فنجده ينتقل بين طبقات المجتمع، وتتغير الحالة النفسية له بتغير المكان، فكما وجدناه محبطا، من مصاعب العيش عند الفقراء، وما حاول تصويره عن حياتهم، نجده في المقابل عند مكوثه لدى طبقة الأغنياء يسرد بذخهم، ووفرة العيش، ويصاحب ذلك أبعاد نفسية مختلفة عما رأيناه سابقا، فيتحدث عن أصناف الطعام المختلفة، فيقول: "تلك الموائد الدسمة، لم نأكل منها كثيرا، بعضها نقبت، وبعضها رجعت كما أتت"[2]، وفيما سبق يحاول الكاتب ابراز حالة البذخ التي يعيشها الأغنياء، ما انعكس على نفسيته أنه يقارنها بحال الفقراء، الذين سبق وأن أخبرنا بأنهم يشترون كل شيء بالتجزئة المجزأة، نظرا لغلاء المعيشة، ويظهر عليه ذلك من خلال غياب نهمه في الأكل، فيقول: "ذقت فتاتة صغيرة من شواء الجمل"[3].

وصاحب الأثر البالغ في نفسية الكاتب، هو مهربو البشر الذين قابلهم بغية السفر، فيقول: "قبلت على مضض؛ لكنها الحاجة تشنق صاحبها يا سادتي"[4]، وهنا يصف الكاتب حالته النفسية وتعبها من جانبين، الأول خرقه للقوانين، بحيث أنه يسافر بطريقة غير شرعية، والثاني المبلغ الخيالي المطلوب للرحلة، لكن حاجته للسفر غلبت الأمرين، وغدا

---

[1] الرواية ، ص41.

[2] المصدر نفسه ، ص57.

[3] المصدر نفسه ، ص57.

[4] المصدر نفسه ، ص74.

كأغلب الأفارقة هنا ضحية للخارجين عن القانون، لكنها الوسيلة الوحيدة للتنقل في الصحراء الكبرى.

3- البعد السياسي:

أما فيما يخص البعد الساسي للرواية فإن القارئ السياسي، يلحظ بأنها سياسية في غالبها، سواء بصفة مباشرة أو العبارات الايحائية السياسية، المتضمنة في الرواية، ولعلنا نلمس إيحاءات الكاتب السياسية من أول صفحة في الرواية، عندما يتحدث عن بعد الكتابات العربية عن الساحة الإفريقية ما فتح الباب حسب الكاتب للفطريات السامة التي زرعت في قلوب الكتاب والراغبين في البحث اليأس الأدبي، مصورين الساحة الافريقية بأبشع الصور فيقول: "هذا الأمر ساعد على زراعة فطريات سامة، أخالها مخترعة، اتخذها هذا الأخير، مسوغات لعدم التلهي بها كتابيا، كقولهم دائما، أن تلك المناطق، ماهي إلا؛ بؤر للبؤس، والحروب الأهلية، والأوبئة، أو قل الموت...فذاك أبلغ الأوصاف المرعبة"[1]، وفي هذا تلميح صريح بأن هناك لوبيات غربية في الغالب، لتبقى منطقة الساحل بعيدة عن تبادل الثقافات بينها وبين العرب، بهدف عزلها عن كل ما يبعدها عن الثقافة الاستعمارية الموروثة، بهدف تغييب عقول أهلها وضمان عدم تمرد ثقافي يتبعه سياسي يضر بمصالحهم.

ويستمر الكاتب في رسائله السياسية حينما، يتحدث عن أصحاب المال والنفوذ في النيجر، الذين اغتنوا من خيرات الأرض وأمعنوا في الفساد في الأرض، وهي الصورة الغالبة في إفريقيا، فيقول: "التي اغتنى أولادها، ونالوا الدرجات العلى بالخارج، فأمسوا وزراء وسفراء وضباطا سامين، اتخذوا نيامي مستقرا ومقاما، بحكم مناصبهم السامية، ومن ثمة التراخي بعد التقاعد، حيث اليد مملوءة بالرشوة، والنفوذ قد استحكم"[2]، وهنا لا يبتعد الكاتب كثيرا عن الواقع الإفريقي المرير، حيث يعيش أبناء البلد حياة البؤس والجهل، فيما يدرس أبناء

---

[1] الرواية ، ص10.

[2] المصدر نفسه ، ص 18-19.

الطبقات الراقية في الخارج، فيدرسون علم العجم، ويتعالون به على أبناء جلدتهم، فيمعنون في احتكار المناصب السامية، والثروات، حتى بات الوطن عندهم مصدر للغنى والجاه ليس إلا، أو مدفنا بعد الموت، ويتجلى يأس الكاتب من هذه الحالة في قوله: "إنا لله وإنا إليه راجعون"[1].

وبالعودة لما تطرقنا له سابقا، عن اللوبي الغربي الذي يسود صورة إفريقيا لزائريها، يتحدث عنهم الكاتب حين يرى مجموعة من الأوروبيين يرافقونه في رحلته، فيتساءل عن دافع هؤلاء البؤساء للذهاب إلى هذا البلد ثم يجيب قائلا: "سؤالي عن سبب تركهم لنعيم أوروبا، وبلوهم بالسفر لأفقر دولة في العالم، أن محدثي أهل الدراية والرواية، في هذا الشأن قال؛ هؤلاء القوم يأتون نيامي، من أجل الانخراط في الهيئات الفرنسية المسيحية التبشيرية، التي اتخذت من شعار العزف على وتر الإنسانية والإغاثة، شعارا لها"[2]، ويتجلى من خلال هذا الطرح، عدم ثقة الكاتب في مبرر زيارتهم للساحل، على أن هدف الزيارة إنساني لإغاثة سكان المنطقة، لكن الغرض الأساسي لهم هو التبشير والحرص كل الحرص على احتلال الساحة الثقافية وإبعاد كل ما هو شرقي عن هذا البلد والهدف كما ذكرنا سالفا، الاستحواذ على كل ما في هذا البلد من ثقافة وثروات، وعمالة وغيرها، إضافة إلى الضهور بصورة المتحضر، المنشغل بهموم الآخرين.

ولا يبتعد الكاتب عن السياسة كثيرا حينما يتحدث عن الصورة النمطية للشاب الأوروبي التي حرص الغرب على تصديرها لنا، والتشجيع على الاقتداء بها، وهي صورة المجون والجنس وغيرها، غير أن ما لاحظه الكاتب العكس تماما، في قوله: "الغريب في الأمر والمدهش حقا، أن الشباب الفرنسيين، ظلت عيون الكثير منهم، مسمرة بصفحات كتبهم

[1] الرواية ، ص 19.

[2] المصدر نفسه ، ص25.

الصغيرة، وأحسبها كتب الجيب، من روايات وقصص"[1]، وهذه هنا الصورة الحقيقية للمواطن الغربي، التي يخفونها عنا، بينما يتبع الساب العربي قشور حضارتهم، فلا يصدق الشاب هنا إيجاد فرصة يفر بها من قيود مجتمعه المحافظ، ليرتمي في إرشادات الغرب لتفريغ مكبوتاته، وهذا ما ساهم في اذكاء كل ما هو معارض للدين والعرف بين الشباب، وهي سياسة صرف عليها الغرب الكثير لتدمير أقوى ما نملك ألا وهو الشباب، ويعود الكاتب للحديث عن الشاب الأوروبي الذي اتخذ كتابه خليله، حيث لم تقتصر قراءتهم للكتب على المكاتب بل تعداه لكل أوقاتهم وأماكن تواجدهم، ويتجلى ذلك في قوله: "تجعلني أذهب بعيدا في هذا الزعم، من مدى تعلق الغربي بفعل القراءة، ومحاكات هذا العشق، ليس في أماكنه المخصصة كالمكتبات والمدارس والجامعات كما الحال عندنا، بل في كل محطات الانتظار والحياة"[2].

لا يبتعد الكاتب عن عنصر الشباب كثيرا، فيتطرق لموضوع الهجرة الغير شرعية، من خلال اطلاعه على روايته (كامارد)، التي تطرق فيها لهجرة الأفارقة، وصعوبات الرحلة، فيقول: "تناولت في تيمة هذه الأخيرة؛ موضوع الهجرة الأفارقة نحو الفردوس الأوروبي...عبر طريق الحيف والضياع، الذي سلكه البطل مع رفاقه، بداية من أرض السافانا، مرورا بفيافي الصحراء الكبرى كاملة وما أطولها، مع تجار البشر، وصولا لشمال القارة، وأخيرا محاولة تسلق حواجز سبتة ومليلة الإسبانيتين"[3]، وهنا يعالج الكاتب القضية الاجتماعية والسياسية الكبرى في هذه المنطقة، فهي مخلفات ما سبق ذكره من تهميش وتخلف واستبداد، أمعن الغرب في استتبابه في المنطقة، ورسم الصورة النمطية التي سبق الحديث عنها، ما يسيل لعابهم، جراء الحرمان الذي يعانونه على كل المستويات، فيدفعهم لخوض رحلة أشبه ما تكون بالانتحار، حيث أنهم يجتازون الصحراء، وما أكبرها كما قال الكاتب، حاملا في هذا التعبير، كل صعوباتها، من غياب الغذاء إلى خطر الحيوانات البرية، إلى انعدام الاتصال،

---

[1] الرواية ، ص25.

[2] المصدر نفسه ، ص27.

[3] المصدر نفسه ، ص28-29.

هؤلاء الشباب، سلموا مصيرهم بكل مرارة لتجار البشر هنا، هؤلاء الذين لا تهمهم حياة أحد، غير المال المدفوع لهم، ليقول في الأخير أن نهاية من سلم من الصحراء، تكون عند حواجز سبتة ومليلة الإسبانيتين.

ويعود للحديث عن تجار البشر في سياق الرواية حين يضطر هو نفسه للركوب معهم، في رحلته إلى الشمال، فيقول: "بعدها سألت عن نقطة تهريب البشر، دلني أحدهم بإشارة يده اليمنى، جهة شمال أرليت، عرض علي هذا الأخير، أن يوصلني لمظنتهم، مقابل 100.000 فرنك صيفا، قبلت على مضض"[1]، وتأتي رحلة الكاتب هنا كمعاينة ميدانية لهذه الفئة، ممن انتهت كل أنواع التجارة أمامهم، غير تجارة البشر، لما تدره من أموال ضخمة من جيوب اليائسين، ومن مميزاتها بالنسبة لهم أنها غير قانونية، وبالتالي من عاش فهو محظوظ، ومن مات متروك للبرية، حتى ثمن الرحلة هنا مرتفع كما وضحه الكاتب، وككل إفريقي يائس ركب معهم كاتبنا على مضض "لكنها الحاجة تشنق صاحبها يا سادتي"[2]، يسرد من خلال رحلته، النظرة المادية البحتة لديهم، وكذا بعض مغامراتهم ومطارداتهم مع حرس الحدود، سواء الجزائري أو المالي، هذا الأخير تطرق إليه الكاتب في سياق روايته، بأنه غير بعيد عن تقاليد الساحل الإفريقي، من سعي وراء الرشوة اليسيرة لا أكثر.

4-دلالات الانتماء في الرواية:

فيما يخص دلالات الانتماء الديني مثلا التي وظفها الكاتب في روايته تكاد لا تحصى، فبداية قد دأب الكاتب على ختم بعض الفقرات بفقرات وإيحاءات إسلامية في غالبها فمثلا حين يتحدث عن تفشي الرشوة في مدينة نيامي في النيجر، وكدلالة على يأسه من صلاح حال هذا البلد من هذا الوباء يقول: "حيث اليد مملوءة بالرشوة، والنفوذ قد استحكم،

[1] الرواية، ص73-74.

[2] المصدر نفسه ، ص74.

وإنا لله وإنا إليه راجعون"[1]، وهو اقتباس من القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[2]، ويعود للاقتباس من تعابير الدين الإسلامي، حين يتطرق متأسفا على حال الشباب العربي في اقتفائه أثر الشباب الغربي، ولكن في الجوانب السلبية لا أكثر، فيقول: "عكس العربي، الذي يعيش الكبت داخل سلطة المجتمع المحافظ، فإذا ما وجد فرصة سريعة لتفريغ نزواته، فرغها بلا رحمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله"[3]، وعبارة لا حول ولا قوة إلا بالله قال فيها النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري: {ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله}[4]، كما نلتمس ذهول الكاتب من هول اكتشافه أن حتى دخول بيت الله في مدينة أقادر، يتطلب دفع رشوة للبواب فيقول: "حرن بواب المسجد ورفض زيارتنا، بحجة عدم مناسبة الوقت، تبسم أبا أحمد، وجذبني من يدي، بعدها قال لي، إن البواب يريد الرشوة، قهقهت ملئ شدقي، شرا وعلنا، وقلت في نفسي؛ الرشوة حتى في بيوت الله، يا عباد الله"[5]، وهنا يتساءل الكاتب على سبيل الدهشة والاستغراب من شناعة هذا الفعل، ولم يكف لهذا البواب عمله في المسجد واعضا لما يقدم عليه من جرم كبير.

أما الانتماء على المستوى اللغوي فينقسم إلى قسمين فصحى وعامية ولعل هذا التقسيم كان مقصودا من طرف الراوي، مما يدل على اطلاعه اللغوي الواسع، أضف إلى أنه يدل على تشبثه بالوطنية، والروح القومية، وما نلاحظه في الرواية قوله: "عندنا نحن العرب

---

[1] الرواية، ص19.

[2] سورة البقرة:155- 157 .

[3] الرواية، ص26.

[4] أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة، برقم 6384، ومسلم في كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالأذكار برقم 2704.

[5] الرواية، ص72.

صورة نمطية عن الغرب وشبابه"[1]، وهذه المقولة أبلغ ما ورد في الرواية من حيث إثبات الهوية العربية للكاتب.

وما يثبت براعة الراوي من حيث الجانب اللغوي الفصيح عندما يذكر لفظ المعجم، في قوله: "في معجم أهل صحاري الخيام"[2]، وهو ما يدل على إحاطة الكاتب بلغته، ولغة بلد الرحلة.

والجدير بالذكر أن اللغة الفصيحة عنده متميزة، حيث أنها تمتعت بالخيال وحسن الجمال وبراعة التصوير في قوله: "وما يتبع ذلك من استيقاظ صديق أهل الديار؛ جلالة البعوض، وحروب جنوده الليلية المنغصة، كذا تجلى جسد نيامي المترهل"[3]، وهنا عدد كبير من الصور والتشبيهات تبرز إحاطة الكاتب بمفردات اللغة والألفاظ.

أما اللغة العامية فقد وردت في أكثر من موضع والتي تثبت الانتماء الوطني الجزائري، وتتجلى اللغة العامية للكاتب من البداية فيقول في بدايتها: "إلى ماما أفريكا المغبونة"، وهنا يستحضر الكاتب كلمة مغبونة، والتي تدل على كل صفات القهر والظلم والتهميش، واستخدام الكاتب لها، بعيدا عن انتماءه الجزائري، كانت أبلغ تعبير عن حالة إفريقيا.

ونجده يعود إلى اللغة العامية، عندما يتحدث عن مكان تبادل العملات في نيامي ويشبهه بمكان السكوار في الجزائر فيقول: "يحملون في أيديهم، حزم من هذه العملة الافريقية، رجاء مبادلتها بالدولار أو اليورو، كتلك التي نشاهدها بمكان السكوار، من ساحة بورسعيد بعاصمتنا الجزائر"[4]، واستخدامه للفظ السكوار آخر لانتمائه بحيث أنه وظفها هنا قصد إيصال الفكرة بسهولة للمتلقي.

---

[1] الرواية ، ص25.

[2] المصدر نفسه ، ص17.

[3] المصدر نفسه ، ص17.

[4] المصدر نفسه ، ص30.

ولعل أكثر دلالة لغوية عامية برزت لدى الكاتب، عند حديثه عن الورقلي، فقال: "قال الورقلي اللي ما تبغيه بيع ليه الفيراي ولا هديه ليه"[1]، وهنا مثل شعبي جزائري باللغة العامية الخالصة، قصد من خلالها التعبير، عن مقته من اقتناء السيارات القديمة، لكثرة تعطلها ومصاريفها، وكما اللغة العربية الفصحى لا يمكن حصر الألفاظ والكلمات العامية التي وظفها الكاتب في الروية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تمسك الكاتب بانتمائه اللغوي سواء الفصيح أو العامي.

[1] الرواية، ص47.

الخاتمة

الخاتمة

من خلال العناصر التي تطرقنا إليها في أدب الرحلة اكتشفنا مدى أهمية هذا الموضوع وقيمته في الأدب العربي، وذلك من نواحي مختلفة، سواء كانت الخدمة من الناحية الأدبية أو التاريخية أو الجغرافية، فقد كانت بمثابة الخريطة التي خدمت الباحث في معرفة مختلف الأقاليم والمسالك دون أدنى جهد أو تعب لأنها تنقل بعد الاتصال بمختلف الظواهر اتصالا مباشرا.

فالرحلة حسب ما تطرقنا إليه، تعد سر وحدة البشر، والجسر الواصل بين مختلف الشعوب والأقوام، فكيف لنا أن نتعرف على حضارة شعب ما لولا تلك الرحلات التي قاموا بها، شغوفين بحب العلم والمعرفة والاكتشاف.

وتعد الرحلة حافزا كبيرا لبناء شخصية قوية، وهذا من خلال التجارب القاسية والصعوبات التي يمر بها الرحالة، وكانت الرحلة بكافة صورها ومشاهدها من ركائز بناء الحضارة العربية، فلولا الرحلة ما كنا لنسمع عن "ابن بطوطة" أو "ابن خلدون" وغيرهم الكثير، فمن النادر أن نجد أديبا أو عالما لم يرتحل لانتقاء علومه وصقلها.

ورغم تأخر المغرب العربي عن المشرق في بعض الفنون الأدبية إلا أننا نلتمس تقاربا في مجال أدب الرحلة، وتعد الجزائر برحالتها من رواد هذا الفن، أما فيما يخص رحلة الصديق حاج أحمد "رحلاتي إلى بلاد السافانا" فهي تعد قطعة مهمة في الأدب الجزائري المعاصر بصفة عامة، وأدب الرحلة خاصة.

فهي على عكس ما عالجه غالبية الرحالة الجزائريين والعرب اختار التوجه جنوبا قاصدا منطقة الساحل التي تفتقر الة عنصر الجذب والإغراء الذي يتواجد في غيرها.

تظم الرحلة في ثناياها عديد المعلومات المنتقاة بالمعايشة، ليتطرق من خلالها للسياسة تارة، وللحالة الاجتماعية تارة أخرى، كما لم يخف حالته النفسية في البحث، ولا انتمائه، سواء العقائدي أو اللغوي.

الخاتمة

تعد مصدرا مهما للباحثين الجيوسياسيين، لما توفره من نضرة شاملة عن حياة السكان في هذه المنطقة الحساسة من العالم، معالجا مختلف جوانب الحياة سواء العادية من مسكن وملبس وظروف الحياة، وصولا إلى حياة التهريب ومتجاوزي القانون، جملة قيمة من المعلومات في قالب أدبي بسيط.

وفي الأخير لا يسعنا إلا القول بأن رحلة الصديق حاج أحمد، ستبقى من أبرز روايات أدب الرحلة في الجزائر، نظرا لعدة عوامل منها قلة الباحثين في المنطقة التي تطرق إليها، وكذا قيمتها الأدبية.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

المصادر

1. القرآن الكريم، رواية ورش عن الإمام نافع.
2. الإمام البخاري كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة، برقم 6384، ومسلم في كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالأذكار برقم 2704.
3. الصديق حاج أحمد، رحلتي إلى بلاد السافانا ، فنك للكتب، 2019.

المراجع

1. عمر بن قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر بن عكنون، 1995 .
2. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي،ج2، بيروت، ط 1، 1998.
3. احمد حفيظة ، بنية الخطاب في الرواية النسائية الفلسطينية ، دراسة نقدية ، مركز أوغاريت الثقافي، فلسطين ، ط 1، 2007.
4. الرحلة والرحالة المسلمون، أحمد رمضان أحمد، جامعة عين شمس، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، 2007.
5. حسن مجيد لعبيدي ، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، العراق، ط1، 1987.
6. حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، ط 2، بيروت لبنان، 1983.
7. حسين فهيم، أدب الرحلات: دراسة تحليلية من منظور أثنوجرافي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.

8. حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991.
9. سيزا قاسم ، بناء الرواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ) ، مهرجان القراءة للجميع ، 2004 م.
10. الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي، دراسة في روايات نجيب الكيلاني، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010.
11. صلاح صالح. الرواية العربية والصحراء. وزارة الثقافة. دمشق. ط1، 1996.
12. عماد الدين خليل، من آداب الرحلات ، دار ابن كثير ،ط 1426 هـ، 2005م.
13. غاستون باشلار، جماليات المكان ، ط 2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع ، تـ غالب هلسا، لبنان، 1984 م.
14. مجموعة من الباحثين ، جماليات المكان، عيون المقالات، ط 2، المغرب، 1998 م.
15. مجموعة مؤلفين الرحالة والتواصل الحضاري، ، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ط 1993 م.
16. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي، دار النشر للجامعة المصرية مكتبة الوفاء، ط 1، مصر ،1995.
17. نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط 1، عمان، 2008.

المذكرات

1. بورقبة مريم، أدب الرحلة عند محمد الخضر حسين (الرحلة الجزائرية أنموذجا)، بحث مقدم لنيل شهادة الماستر، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة أدرار، 2013/2012.

2. نجلاء سلمى، خديجة مسعي عون، بنية الخطاب السردي في أدب الرحلة من خلال كتاب رحلاتي لبلاد السافانا للحاج الصديق أحمد، مذكرة ماستر، كلية الآداب واللغات، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، 2020-2021.

المجلات

1. حافظ، صبري، الحداثة والتجسيد المكاني، مجلة فصول، العدد يويو، 1984.
2. مجلة فصول: جماليات التشكيل الزماني والمكاني لرواية "الحواف"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج 12 ،1993 ، ص: 314 .
3. محمود بوزوزو، من وحي البرلمان الفرنسي، مجلة البصائر، السلسلة 2 ، العدد 13، نوفمبر 1974.

المـــــــــلاحق:

نبذة عن الكاتب:

الصديق حاج أحمد كاتب جزائري من مواليد أدرار، الجزائر، عام 1967. أستاذ التعليم العالي لمقياس اللسانيات العامة ولسانيات الخطاب بكلية الآداب في جامعة أدرار، وهو مدير مخبر سرديات الصحراء في نفس الجامعة. فاز بالجائزة التقديرية الوطنية من وزارة الثقافة، حول الكتابة السردية عن الصحراء. أصدرا ثلاث روايات:

- مملكة الزيوان "(2013).
- "كاماراد" (2016).
- "منا" (2021).

صورة الصديق حاج أحمد:

ملخص الرواية:

يأخذنا الصديق حاج أحمد في ثنايا رحلته بين عدة دول، هي السودان ومالي والنيجر، متنقلا بينها وساردا لنا مشاهد ويوميات عن حياة سكان هذه النقطة من الأرض، متبعا أسلوبا سهلا مشوقا، يأسر القارئ من البداية، من خلال إتقانه تضمين المعاني ما بين السطور، فلا يغفل في سرده أي جزئية مهما صغرت.

نلتمس من خلال سطور رواية الصديق حاج أحمد، مختلف تفاصيل الحياة في هذه المنطقة، اجتماعية كانت أو سياسية دون أن يغفل أي تفصيل مما سبق، فيصف رحلة النيجر بأنها كانت بطعم المانجو، مبرزا رأيه في سكانه بأنهم طيبون، أما أبرز غذاء لهم فكان حسب الكاتب هو الحليب، وفيما يتعلق بالمباني والعمران فتنقل بين الأعشاش والأكواخ، مبرزا بيوت الزنك أو البوتيكا حسب قوله، وصولا إلى البناء المعماري الفخم الذي يبقى حكرا على الأغنياء دائما، مبرزا دون إشارة واضحة مدى التفاوت الرهيب بين طبقات المجتمع النيجيري، أما حقوق المرأة فأصلها هو من يحدد قيمتها ومدى شقائها في الحياة، فالأصلية هنا كتب لها الشقاء بين عمل البيت والخارج، أما العربية الطارقية، فكانت مستريحة مبجلة كالملكة، وفيما يخص اللباس، نجد اللثام والبازارات والإزرار.

وفي ظل صعوبة الحياة التي أبرزها الكاتب من خلال ما سبق، حاول السكان ابتكار ما يناسب دخلهم من بيع وشراء، فجزئوا المجزأ حرفيا، حيث يباع الزيت بالكأس والطماطم بالملعقة، والخبز بالشطيرة.

وبعد نقل حال سكان النيجر التي يمكن تطبيقها على باقي رحلته ما بين مالي والنيجر، لذا فلن يتطرق إلى حال السكان فيما يلي رحلته، فعنوان رحلته إلى مالي بقوله "اقتفاء آثار القوافل وحوافرها"، ومن خلال العنوان يتضح لنا أنها رحلة استقصائية، علمية بالدرجة الأولى، فيلقي من خلال رحلته الشاقة على خلاف رحلته الأولى بعديد الشيوخ والعلماء، الشيخ الكنتي، والشيخ المغيلي، والشيخ أحمد بن بانة الكنتي، وغيرهم من المشايخ، عامدا في رحلته العلميةّ إلى البحث في المخطوطات القديمة، منتقيا ما استطاع من علومها.

وفي رحلة السودان التي عنوانها بموسم الرحلة إلى الجنوب، فيصف مسار رحلته ما بين أدرار وصولا إلى العاصمة مرورا بالقاهرة، وصولا إلى الخرطوم، التي يصفها بأنها مدينة افريقية بامتياز، تشبه تلك العواصم الافريقية التي زارها من قبل، حضر الكاتب وشارك خلال وجوده بها في عديد الندوات العلمية، منها معالجة موضوع الهجرة الغير شرعية، متنقلا بعدها بين مطاعم المدينة متذوقا أشهى أكلاتها خاصة التقليدية منها.

ولا يغفل الكاتب في روايته إبراز القواسم المشتركة بين الدول الثلاث التي زارها، فمن حيث اللباس يشتركون في البازانات والشاش، أما الأطعمة فالحليب والشاي، هما الأشهر عندهم، أما القاسم المشترك الأبرز بينهم فهو الطيبة والاحترام والوقار.

الملخص:

تناولنا في هذا البحث موضوع أدب الرحلة من خلال دراسة رواية "رحلاتي لبلاد السافانا للصديق حاج أحمد، مبرزين من خلال الدراسة، في جزئها الأول المقصود بأدب الرحلة عموما وخصوصا في الجزائر متطرقين إلى أبرز روادها، وفي الجزء الثاني حاولنا تحليل الرواية ودراستها، فسايرنا الكاتب في مختلف محطات رحلته مبرزين ما بين السطور التي ضمنها الكاتب والتي تعددت بين السياسة والجانب الاجتماعي وغيرها، مرفقين في النهاية لمحة عن الكاتب، وملخص عن الرواية محل البحث.

الكلمات المفتاحية: الرحلة ، السافانا، الصحراء، المكان

résumé

Dans cette recherche, nous avons abordé le sujet de la littérature de voyage en étudiant le roman « Mes voyages au pays de la savane » de l'ami Haj Ahmed, mettant en évidence à travers l'étude, dans sa première partie destinée à la littérature de voyage en général et surtout en L'Algérie, touchant à ses pionniers les plus éminents, et dans la deuxième partie nous avons essayé d'analyser et d'étudier le roman, ainsi l'écrivain nous a suivi dans Les différentes étapes de son parcours mettant en évidence entre les lignes incluses par l'écrivain, qui variaient entre la politique, la aspect social, et d'autres, en joignant à la fin un aperçu de l'écrivain, et un résumé du roman en question.

Les mots clés: Le voyage . Savane . Le désert . Lieu

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كلية: الآداب واللغات
قسم: الأدب العربي

المرجع: القرار الوزاري رقم: 933 المؤرخ في: 28 جويلية 2016 المحدد للقواعد المتعلقة بالوقاية من السرقات العلمية ومكافحتها

تصريح شرفي

خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلميّة لإنجاز البحث

أنا الممضي أدناه،

السيد(ة): طاطراوي نصيرة

الصفة: طالب، أستاذ باحث. باحث دائم:

الحامل (ة) لبطاقة التعريف الوطنية رقم: 207774668

والصادرة بتاريخ: 2022/04/17

عن دائرة: مقرة

المسجل (ة) بكلية: الآداب واللغات قسم: الأدب العربي

والمكلف (ة) بإنجاز أعمال بحث(مذكرة التخرج، مذكرة ماستر، مذكرة ماجستير، أطروحة دكتوراه)، عنوانها:

المكان ودلالته في رواية رحلتي لبلاد الساحل للصديق الحاج أحمد

أصرح بشرفي أني ألتزم بمراعاة المعايير العلمية والمنهجية ومعايير الأخلاقيات المهنية والنزاهة الأكاديمية المطلوبة في إنجاز البحث المذكور أعلاه.

التاريخ:

إمضاء المعني

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كلية: الآداب واللغات
قسم: الأدب العربي

المرجع: القرار الوزاري رقم: 933 المؤرخ في: 28 جويلية 2016 المحدد للقواعد المتعلقة بالوقاية من السرقات العلمية ومكافحتها

تصريح شرفي

خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلميٰة لإنجاز البحث

أنا الممضي أدناه،

السيد(ة): بن لحول سمية

الصفة: طالب، أستاذ باحث. باحث دائم:

الحامل (ة) لبطاقة التعريف الوطنية رقم:

والصادرة بتاريخ:

عن دائرة: عين الملح / المسيلة

المسجل (ة) بكلية: الآداب واللغات قسم: الأدب العربي

والمكلف (ة) بإنجاز أعمال بحث(مذكرة التخرج، مذكرة ماستر، مذكرة ماجستير، أطروحة دكتوراه)، عنوانها:

العنوان ودلالته في رواية رحلة في البلاد السبعة فسانا للصديق حاج أحمد

أصرح بشرفي أني ألتزم بمراعاة المعايير العلمية والمنهجية ومعايير الأخلاقيات المهنية والنزاهة الأكاديمية المطلوبة في إنجاز البحث المذكور أعلاه.

التاريخ:

إمضاء المعني